فتح عمورية وبناء قلعة الحدث

بين أبي تمام والمتنبي

الدكتور / محمد محمد محمود الغرباوي

أستاذ الأدب والنقد المشارك في جامعة الأزهر – مصر

وجـامعـة الملـك خــالــد – السعـودية

فتح عمورية وبناء قلعة الحدث

بين أبي تمام والمتنبي

الدكتور / محمد محمد محمود الغرباوي

أستاذ الأدب والنقد المشارك في جامعة الأزهر – مصر

وجامعة الملك خالد – السعودية

بسم الله الرحمن الرحيم

مقـــدمـــة

ما أجمل الانتصارات في حياة الأفراد والأمم ، خاصـــة إذا كانـــت الانتصارات على عدو عنيد ، قوي الشكيمة ، لا يستسلم بسهولة ؛ بـــل يدوخ قِرنه ، ويفتّ في عضده ! فعندئذ يكون للنصر معنى فريد ، وطعم طيب حلو المذاق.

وما أكثر الانتصارات التي لمعت في سماء أمتنا العربية والإسلامية منذ بزوغ فجر الإسلام ، وعلو نجمه ، وامتداد سلطانه على معظـــم بقـــاع الأرض ؛ ومن هذه الانتصارات ما حققه خلفاء بني العباس على العـــدو الرومي الغاشم ، الذي كان يتربص بالأمة الدوائر ، إذ سرعان ما ينقض على الأطراف الإسلامية المتاخمة لحدوده ، فكان على قوّاد الأمـــة الـــرد السريع ، والردع اللاذع لهذا الهجوم الهمجي الحاقد !.

ومن أعظم الانتصارات التي تُوِّج به العـــصر العباســـي ، انتـــصار المعتصم بالله على الروم وفتح "عمورية" ، وانتصار سيف الدولـــة علـــى الروم أيضاً وبناء "قلعة الحدث" ، وكان النصران تحت ظروف قاســـية ، وقتال مرير من كلا الفريقين ؛ مما جعل للنصر بهجة ســـجلها التـــاريخ ، وتغنَّى بها الزمان.

ولم يجد الأدباء وسيلة للتعبير عن ابتهاجهم بالنصر سوى قرائحهم الجياشة ، فسرعان ما فاضت بالحكمة ، فصورت النصر تصويراً بديعاً ، ووصفت المعارك وصفاً دقيقاً بليغاً ، وأشادت بالمنتصرين في زهو وفخار، وسخرت من المنهزمين سخرية مريرة لاذعة ؛ فكان ذلك حافزاً للجد والعمل ، وتطلعاً إلى آمال أرحب ، ومستقبل زاهر عريض ، كما كان شاهداً في تاريخ البطولة والتضحية سَطّره التاريخ بمداد من نور ، تفخر به الأجيال ، وتتغنى به الركبان!.

وقد اخترت لهاتين الوقعتين شاعرين كبيرين ، سجل كلاهما إبداعه ، وصورها بيراعه في براعة ودقة تلخص الحدثين ، وتُغْني عن مئات الصفحات التي تشرح ما حدث ، وترسم اللوحة القتالية كأنها رأي العين.

والشاعران هما: **أبو تمام الطائي** ، **وأبو الطيب المتنبي** ، وسنقف في هذا البحث عند قصيدة لكل منهما ، سجل فيهما عز النصر وفخر العروبة والإسلام ، وأشاد كلٌ بصاحبه وما حققه من نصر عظيم ، ودحر للعدو الغاشم. وإن القصيدتين لتنبضان بالحيوية ، وتفيضان بالعبقرية الشعرية ، ولكنه من الإنصاف والحيدة ، رأينا أن نفَصّل القول ، ونوازن بين العملين موازنة نقدية ؛ ليكون الحكم أقرب إلى الصواب ، ويعطى كل شاعر ما يستحقه من الإعجاب والتقدير.

وقد جاء البحث في مقدمة وثلاثة فصول وخاتمة.

المقدمة.

الفصل الأول: نبذة تاريخية عن المعركتين وأطرافهما.

الفصل الثاني: الدراسة الموضوعية للقصيدتين.

الفصل الثالث: القصيدتان – دراسة فنية موازنة

خـــاتـــمـــة

هذا .. والحمد لله أولاً وآخراً.

السعودية – أبها في ١٧ رجب ١٤٢٤هـ

الموافق ١٤ سبتمبر ٢٠٠٣م

الفصل الأول

نبذة تاريخية عن المعركتين وأطرافهما

أبو تمام ، هو حبيب بن أوس الطائي (٢٣١هـ) من أشهر الشعراء العرب ، عُرف بالذكاء الخارق ، وسرعة البديهة ، والغوص على المعاني الشعرية. يشهد بذلك شعره البديع ، وكلام النقاد عنه ، واختلاف الآراء حول إبداعه[1].

ولأبي تمام أشعار كثيرة ، جمعت في ديوانه المطبوع في أربعة أجزاء بتحقيق الأستاذ محمد عبده عزام ، وهو ما سنعتمد عليه في دراسة قصيدة أبي تمام في فتح "عمورية". ويتوزع شعر أبي تمام على الأغراض المختلفة من مديح وهجاء وغزل وفخر وحماسة .. الخ. وتعد هذه القصيدة من شعره الحماسي (شعر الحرب) وله سمات خاصة سنتعرض لها عند دراسة القصيدة دراسة فنية.

وقد برع أبو تمام في شعر الحرب ، بل جعله بعض النقاد واضعاً ومؤسساً للشعر الملحمي ، يقول الدكتور زكي المحاسني: "وأحسبه (أي أبا تمام) - حتى يظهر خلاف ذلك - كان أول من ألَّف في الحماسة في تاريخ الفكر العربي ، فانتقى من أشعار العرب في القديم وحتى عهده

١ - لمعرفة المزيد عن أبي تمام ومذهبه الشعري والخصومة حوله ، انظر: الموشح للمرزباني صـ٣٤٣ وما بعدها ، أخبار أبي تمام للصولي ، الأغاني ٣٩٦/١٦ ، طبقات الشعراء لابن المعتز في مواطن متفرقة ، مآخذ القاضي الجرجاني على أبي تمام في كتاب الوساطة - للمؤلف.

نماذج مثقلة بالمعاني العربية والفخر والاعتزاز بالقوة القبلية .. وقد كـــان الشاعر العباسي المشهور أبو تمام ، في حُكمـــي ، أول واضـــع لأســـاس الملحمة العربية باختياره أشعار الحماسة"[1].

واتصل أبو تمام بكثير من مسؤولي الدولة العباسية وأكثـــر فـــيهم المديح ، كما اتصل ببعض خلفائها وهم المعتصم ، والمأمون ، والواثـــق ، ودبج فيهم مدائح أيضاً ، وقد وزع الأستاذ أنيس المقدسي مدائح أبي تمام على أصحابها في تناسق وإحكام ، فكان حـــظ المعتـــصم منـــها ثمـــاني قصائد[2]، ومنها هذه القصيدة التي نقوم بدراستها موازنة مـــع قـــصيدة المتنبي.

المعتصم:

وأما المعتصم ، فهو "أبو إسحاق محمد بن الرشيد بن المهدي بـــن المنصور ، ولد سنة ١٧٩هـــ ، وكان في عهد أخيه المأمون واليـــاً علـــى الشام ومصر ، وكان المأمون يميل إليه لشجاعته فولاه عهده وترك ابنه ، وفي اليوم الذي توفي فيه المأمون ببلاد الروم بويع لـــه بالخلافـــة ولُقِّـــب بالمعتصم بالله في ١٩ رجب سنة ٢١٨هـــ الموافق أغسطس سنة ٨٣٣م.

1 - شعر الحرب في أدب العرب في العصرين الأموي والعباسي إلى عهد سيف الدولة — د. زكي المحاسني صـــ ٢٣٥ — دار المعارف بمصر — الطبعة الثانية ١٩٧٠م.

2 - انظر: أمراء الشعر العربي في العصر العباسي — أنيس المقدسي صـــ١٨٨ — دار العلم للملايين — بيروت — لبنان — الطبعة السابعة عشرة ١٩٨٩م.

ولم يزل خليفة إلى أن توفي بمدينة سامرا في ١٨ ربيع الأول سنة ٢٢٧هـ الموافق ٤ فبراير سنة ٨٤٢م ، فكانت خلافته ثماني سنوات وثمانية أشهر وثمانية أيام[1]".

والمعتصم هو أول خليفة "يضاف إلى لقبه لفظ الجلالة "الله" وقد فعل خلفاؤه فيما بعد مثلما فعل ... وقد تميز المعتصم بكثير من الصفات الطيبة ، وعرف عنه حبه للحضارة ، واشتهر بالبسالة والفروسية .. كما كان ذا بأس وشدة في قلبه ، وفي نفس الوقت كان شفوقاً على الفقراء والضعفاء. ويقول عنه أحد المؤرخين: إنه كان من العظماء الموصوفين بالحزم ، ذوي المناقب الوافرة ، والفتوح الظاهرة ، والفضائل الجمة ، والهمة العالية ، ولم يكن في بني العباس من قبله أشجع منه ولا أتم تيقظاً في الحرب ولا أشد منه قوة. ورغم أن عدم ميله للعلم يؤخذ عليه ، إلا أن خبرته قد عوضته عن هذا النقص[2]".

وما دمنا قد تحدثنا عن المعتصم ، أحد قطبي المعركة ، فمن تمام القول أن نتحدث عن قطبها الآخر ، وهو "ثيوفيلوس" حيث دارت

---

1 - الدولة العباسية – الشيخ محمد الخضري صـ١٩٨ ، ١٩٩ – دار المعرفة – بيروت – لبنان – الطبعة الثالثة ١٤١٨هـ (١٩٩٧م).

2 - العلاقات السياسية بين الدولة البيزنطية والخلافة العباسية في عهد الإمبراطور ثيوفيلوس ٨٢٩ – ٨٤٢م/٢١٤ – ٢٢٨هـ - د. وديع فتحي عبد الله صـ١٤٧ ، ١٤٨ – رسالة ماجستير – إشراف: أ. د. جوزيف نسيم يوسف – جامعة الإسكندرية – قسم التاريخ – ١٤٠٢هـ (١٩٨٢م).

معركة "عمورية" بينهما ؛ لنرى القوة التي تمتع بهـــا الجانبـــان ، العـــربي الإسلامي ، والبيزنطي الرومي ؛ ليكون للنصر وقع آخر.

أما عن "ثيوفيلوس" ، فهو "ابن الإمبراطور ميخائيل الثاني الذي دام حكمه تسع سنوات وثمانية أشهر ، وعندما توفي ميخائيل خلفـــه ابنـــه ثيوفيلوس في الثامن من أكتوبر عام ٨٢٩م/الرابـــع مـــن شـــعبان عـــام ٢١٤هـــ ، ونشأ ثيوفيلوس في قصر والده ، وكانت هذه النشأة نموذجاً لنشأة الأمير البيزنطي. فقد تلقى أرقى أنواع العلوم والتربيـــة ، فـــدرس الفنون والقانون والشعر والموسيقى والآثار واللاهوت ، كما درس الفنون العسكرية ؛ مما جعله جندياً شجاعاً .. وتبلورت في ظل هذه الظـــروف شخصيته ، فأعاد إلى الأذهان — عندما أصبح إمبراطوراً — سيرة أبـــاطرة بيزنطة العظام. وقد أجمع على هذا الرأي كثير من المؤرخين ... وهكـــذا فاق ثيوفيلوس أباه في شهرته[١]".

ومن أعاجيب القدر أن يموت القطبان في عام واحد ، بل في شـــهر واحد ، ففي الشهر الذي "توفي فيه المعتصم ، جاءت وفـــاة الإمبراطـــور البيزنطي ثيوفيلوس على أثر مرض حلّ به ، وكان ذلـــك في ٢٠ ينـــاير ٨٤٢م/٢ ربيع الآخر عام ٢٢٧هـــ بعد حكم دام اثني عشر عاماً وثلاثة أشهر[٢]"

1 - المرجع السابق صـــ١٠٢ : ١٠٤.

2 - المرجع السابق صـــ٢٤٤.

عمورية:

عَمّـــورية "بفتح أوله ، وتشديد ثانيه: بلد في بلاد الـــروم غـــزاه المعتصم حين سمع صراخ العلوية ، قيل: سميت بعمورية بنت الـــروم بـــن اليفز بن سام بن نوح عليه السلام ، وقد ذكرها أبو تمام فقال:

يا يوم وقعة عمورية انصـــرفت   عنك المنى حفلا معسولة الحلب

وهي التي فتحها المعتصم في سنة ٢٢٣هـــ ، وفتح أنقرة بسبب أسْر العلوية في قصة طويلة ، وكانت من أعظم فتوح الإسلام. وعمورية أيضاً: بُليْدة على شاطئ العاصي بين فامية وشيزر فيها آثار خراب ولها دخـــل وافر ولها رحى تغل مالاً [1]".

وأما عن عمورية الحديثة ((فمكانها الآن مدينة في تركيـــا تـــسمى "سدرى حصار" [2])).

---

1 - معجم البلدان – ياقوت الحموي ٤/١٥٨ – دار بيروت للطباعة والنشر – بيروت ١٤٠٨هـــ (١٩٨٨م).

2 - العلاقات السياسية بين الدولة البيزنطية والخلافة العباسية – مرجع سابق صـــ١٧٦.

تحصينها:

عمل البيزنطيون على تحصين هذه البلدة ؛ لأنها من "أعظم مدنهم وأكثرها عدة ورجالاً. فهي بلدة كبيرة بداخلها قلعة حصينة وبساتين ونهر وعيون جارية. وقد تميزت بمناعتها بسبب تحصيناتها القوية وسورها المنيع وأبراجها العالية الكثيرة ، التي يحددها ابن خرداذبة بأنها أربعة وأربعون برجاً ، كما أنها محاطة بخندق واسع كبير. ولكن رغم هذه التحصينات التي تميزت بها باعتبارها أهم قلعة بيزنطية في إقليم الأناضول إلا أنها أصبحت هدف العباسيين إذ إن سقوطها يمهد لهم الطريق إلى القسطنطينية وهو الأمر الذي فشلوا في تحقيقه أيام الأمويين[1]".

المعركة:

أفاض المؤرخون في وصف المعركة ، وفي تحديد عدد الجند من الفريقين فذكروا أن عدد المسلمين كان سبعين ألف مقاتل ، وذكر بعضهم أنها كانت ما بين مائتي ألف وخمسمائة ألف إلى غير ذلك من الأعداد والعتاد ، كما وصف المؤرخون المعركة بأنها كانت قوية وضارية وفيها الكر والفر من الجانبين ، وكان الحصار لمدة أربعة أشهر ، كما تحدثوا عن سقوط عمورية في يد المعتصم في ١٧ رمضان ٢٢٣هـ ،

1 - المرجع السابق صـ١٧٧.

وكانت الخسائر فادحة في الجانب البيزنطي ، ولم تكن باليسيرة في الجانب العباسي[1].

وإنما أطلت في الحديث حول هذه الوقعة ؛ لما لها من أثر في قصيدة أبي تمام ، حيث شاهد المعركة بنفسه ، ورأي أهوالها ثم كحّل عينيه بالنصر المبين ، ورؤية القلعة الحصينة وهي تنهار وتسقط في أيدي المسلمين. كما أنه حضر الحفل الذي أقامه المعتصم ابتهاجاً بالنصر ، وقيل: "إن المعتصم أحضر السفارة التي أرسلها ثيوفيلوس لطلب السلام منه قبيل المعركة لكي تشاهد فتح المسلمين للمدينة وتركهم يعودون إلى بلادهم ليخبروا الإمبراطور بما حدث لمدينتهم ، وقد حمّلهم – بلغة العصر– رسالة شفهية إلى الإمبراطور ، تقول: "أخبروا مولاكم أنني أخيراً قد استرددتُ الدَّيْن الذي اقترضه في زبطرة[2]".

وكان لهذه المعركة أثر واضح في الأدب العربي ، فأكثر الشعراء والأدباء من وصف هذه الوقعة والإشادة بانتصار المسلمين فيها ، وتمجيد بطولة المعتصم وقواده.

---

1 - لمعرفة المزيد حول هذه المعركة انظر: المرجع السابق عند حديث الباحث عن "عمورية".

2 - المرجع السابق ص ٢١٥ ، ٢١٦.

وتأتي قصيدة أبي تمام التي ندرسها على رأس هذه الأعمال الأدبية ، وأما في مجال النثر "فكانت الأعمال الأدبية غزيرة ، وأهمها ذلك المديح الذي ألقاه الحسين بن الضحاك الباهلي أمام الخليفة المعتصم وقائده الأفشين ؛ لانتصاره في أنقرة على الإمبراطور ، كذلك مدح إبراهيم بن المهدي المعتصم مهنئاً إياه بهذا النصر المبين[1]".

بائية أبي تمام:

وقال يمدح المعتصم بالله أبا إسحاق محمد بن هارون الرشيد ، ويذكر حريق عمورية وفتحها:

السيف أصدق أنباء من الكتب	في حده الحد بين الجِدّ واللعب
بيض الصفائح لا سود الصحائف في	متونهن جلاء الشك والريب
والعلم في شهب الأرماح لامعة	بين الخميسين لا في السبعة الشهب
أين الرواية أم أين النجوم وما	صاغوه من زخرف فيها ومن كذب؟
تخرصاً وأحاديثاً ملفقة	ليست بنبْع إذا عُدّت ولا غرب
عجائباً زعموا الأيام مجفلة	عنهن في صفر الأصفار أو رجب
وخوفوا الناس من دهياء مظلمة	إذا بدا الكوكب الغربي ذو الذنَب
وصيَّروا الأبُرج العليا مرتَّبة	ما كان منقلباً أو غير منقلب
يقضون بالأمر عنها وهي غافلة	ما دار في فلك منها وفي قُطب
لو بيَّنت قطُّ أمراً قبل موقعه	لم تُخف ما حلّ بالأوثان والصُّلُب

1 - المرجع نفسه صـ٢٢٠.

فتح الفتوح تعـــالى أن يحـــيط بـــه ... نظم من الشعر أو نثر مـــن الخطـــب

فتح تفـــتَّح أبـــواب الـــسماء لـــه ... وتـــبرزُ الأرضُ في أثوابها القُـــشب

يا يوم وقعـــة عموريـــة انـــصرفتْ ... منك المنى حفـــلاً معـــسولة الحلـــب

أبقيت جَدَّ بني الإســـلام في صـــعد ... والمشركين ودار الـــشرك في صَـــبَب

أُمٌّ لهم لو رجوا أن تفتـــدى جعلـــوا ... فـــــداءها كـــــل أمّ منـــــهمُ وأب

وبرزة الوجه قد أعيـــت رياضـــتها ... كسرى وصدّت صدوداً عن أبي كَرِب

بِكر فما انتزعتـــها كـــف حادثـــة ... ولا ترقّـــت إليهـــا همّـــة النـــوب

من عهد إسكندر أو قبل ذلك قـــد ... شابتْ نواصي الليالي وهي لم تـــشب

حـــتى إذا مخّـــض الله الـــسنين لهـــا ... مخْض البخيلة كانت زُبـــدة الحقـــب

أتتهم الكُربـــة الـــسوداء ســـادرة ... منها وكان اسمهـــا فراجـــة الكـــرب

جرى لها الفأل بَرْقـــاً يـــوم أنقـــرة ... إذ غودرت وحشة الساحات والرِّحب

لما رأت أختها بالأمس قـــد خربـــت ... كان الخراب لها أعدى مـــن الجـــرب

كم بين حيطانها من فـــارس بطـــل ... قاني النوائـــب مـــن آني دم ســـرب

بسُنَّة السيف والحِنَّـــاءُ مـــن دمـــه ... لا سُنَّة الـــدين والإســـلام مختـــضب

لقد تركـــتَ أمـــير المـــؤمنين بهـــا ... للنار يوماً ذليل الـــصخر والخـــشب

غادرتَ فيها بهيم الليل وهو ضـــحيً ... يشُلّه وسطها صـــبحٌ مـــن اللـــهب

حتى كأنّ جلابيب الـــدجى رغبـــتْ ... عن لونها وكـــأنّ الـــشمس لم تغـــبِ

ضوء من النار والظلمـــاءُ عاكفـــةٌ ... وظلمةٌ من دخان في ضـــحى شـــحب

فالشمس طالعةٌ من ذا وقـــد أفَلَـــتْ ... والشمس واجبـــةٌ مـــن ذا ولم تجـــب

تصرّح الدهرُ تصريح الغمـــام لهـــا ... عن يوم هيجاءَ منـــها طـــاهر جُنُـــب

لم تطلع الشمسُ فيه يوم ذاك علـــى ... بانٍ بأهلٍ ولم تغـــرُبْ علـــى عَـــزَبِ

ما ربعُ ميّـــة معمــوراً يطيــف بــه   غَيْلانُ أبْهى ربىً من رَبعهــا الخــرب

ولا الخدود وقد أُدْمين مــن خجــلٍ   أشهى إلى ناظرٍ مــن خَــدِّها التــرب

سَماجةٌ غنيــتْ منّــا العيــونُ بهــا   عن كل حُسْنٍ بدا أو منظــر عَجَــب

وحُــسْنُ منْقَلــبٍ تبــدو عواقبــه   جاءتْ بشاشته مــن ســوء منقلــب

لو يعلم الكفرُ كم من أعصرٍ كَمَنَتْ   له العواقب بــين الــسُّمْر والقُــضُب

تــدبير معتــصم بــالله منــتقم   لله مرتقــــب في الله مرتغــــب

ومُطْعــم النــصر لم تكْهَــم أســنّتُه   يوماً ، ولا حُجبت عن روح محتجــب

لو لم يَقُدْ جحفلاً يوم الــوغي لغــدا   من نفسه وحدها في جحفــلٍ لجــب

رمــى بــك الله برُجبــها فهــدّمها   ولو رمــى بــك غــيرُ الله لم يُــصبِ

من بعد مــا أشــبوها واثقــين بهــا   واللهُ مفتاح بــاب المعقــل الأشــب

وقال ذو أمــرهم لا مرتــع صَــدَدٌ   للسارحين وليس الوِرْدُ مــن كَثَــب

أمانيــا ســلبتهم نُجْــح هاجــسها   ظُبى السيوف وأطرافُ القَنا الــسُّلُبِ

إن الحِمامين من بيض ومــن سُــمُر   دَلوا الحياتين من ماءٍ ومــن عُــشُب

لبّيْتَ صوتاً زِبطريّــاً هرقْــتَ لــه   كأسَ الكرى ورُضابَ الخُرَّد الغُــرُب

عَدَاك حَرُّ الثغور المُسْتــضَامة عــن   بَرْد الثغور وعن سلــسالها الحَــصِب

أجَبْتــه مُعْلنــاً بالــسيف منــصلتاً   ولو أجَبْتَ بغــير الــسيف لم تُجــبِ

حتى تركت عمودَ الــشركِ منعفــراً   ولم تُعرِّج علــى الأوتــاد والطُّنُــب

لما رأى الحربَ رأي العين "تــوفَلِسٌ"   والحرْب مشتقةُ المعنى مــن الحَــرَب

غَدا يــصرف بــالأموال جِرْيتــها   فعَــزَّه البحــرُ ذو التيــار والحَــدَب

هيهات ! زعزعت الأرض الوقور به   عن غزو محتسبٍ لا غــزو مُكتَــسب

لم يُنفــق الــذهب المُــرْبي بكثرتــه   على الحصى وبــه فقــر إلى الــذهب

إن الأسود أسود الغيل هِمتها ... يوم الكريهة في المسلوب لا السَّلَب

ولّى وقد ألْجَم الخطيُّ منطقَه ... بسكتة تحتها الأحشاءُ في صَخَب

أحذى قرابينه صرفَ الردى ومضى ... يَحتثُّ أنجى مطاياه من الهَرَب

مُوَكَّلاً بيفاع الأرض يُشرفُه ... من خفَّة الخوف لا من خفة الطرب

إن يَعْدُ من حرِّها عَدْو الظليم فقدْ ... أوسعْتَ جاحمَها من كثرة الحطب

تسعون ألفاً كآساد الشرى نضجتْ ... أعمارهم قبل نضج التين والعنب

يا رُبّ حوباء لّما اجْتُثَّ دابرهم ... طابتْ ولو ضُمّخَتْ بالمسك لم تَطب

ومُغْضَبٍ رجَعَتْ بيضُ السيوف به ... حَيَّ الرضا مِن رَدَاهم ميِّتَ الغضب

والحرب قائمةٌ في مأزِق لَجِج ... تجثو القيامُ به صُغْراً على الركب

كم نيل تحت سناها من سنا قمر ... وتحت عارضها من عارض شنِب

كم كان في قطع أسباب الرقاب بها ... إلى المخدّرة العذراء من سبب

كم أحرزت قُضُب الهندي مصلتَةً ... تهْتَزّ من قُضُبٍ تهتز في كُثُب

بيضٌ إذا انتضيت من حجْبها رجَعَتْ ... أحق بالبيض أتراباً من الحُجُب

خليفة الله جازى اللهُ سعيك عن ... جُرْثومة الدين والإسلام والحسب

بَصُرتَ بالراحة الكبرى فلم ترها ... تُنال إلا على جِسْرٍ من التعب

إن كان بين صروف الدهر من رحم ... موصولةٍ أو ذمامٍ غير مُنْقَضب

فبين أيامك اللاتي نُصرتَ بها ... وبين أيام "بدْر" أقربُ النسب

أبقت بني الأصفر الممراض كاسمهم ... صُفْرَ الوجوه وجلّتْ أوجه العرب[1].

1 - ديوان أبي تمام ١/ ٤٠ : ٧٣ - بشرح الخطيب التبريزي - تحقيق محمد عبده عزام - دار المعارف بمصر - الطبعة الرابعة ١٩٧٦م.

المتنبي ، وسيف الدولة ، وقلعة الحدث

أما أبو الطيب المتنبي (ت ٣٥٤هـ) فهو شاعر الحكماء ، وحكيم الشعراء ، وهو الذي ملأ الدنيا بشعره ، وشغل الناس حوله بخصومات طاحنة حول مذهبه الشعري وطموحاته التي لا نظير لها بين الشعراء[1].

وللمتنبي ديوان شعر كبير ، قام بشرحه جمع من العلماء ، كالعكبري ، وابن جني ، عبد الرحمن البرقوقي ، وغيرهم. وتدلنا كثرة الشروح لديوانه دلالة عظيمة على شهرته حتى قال ابن خلكان عن هذه الشهرة : "واعتنى العلماء بديوانه فشرحوه ، وقال لي أحد المشايخ الذين أخذت عنهم: وقفت على أكثر من أربعين شرحاً ما بين مطولات ومختصرات و لم يفعل هذا بديوان غيره[2]".

وضم هذا الديوان شعر أبي الطيب الذي فاضت به قريحته في سنواته الإحدى والخمسين التي قضاها حاملاً هموم العروبة فوق كتفيه يجوب بها الآفاق من الكوفة إلى الشام – خاصة حلب – إلى مصر إلى شيراز حتى انتهى به المطاف إلى مقتله بين أرض فارس والعراق.

---

1 - لمعرفة المزيد عن المتنبي وشعره والخصومات حوله ، انظر: تيمية الدهر للثعالبي جـ١ ، الصبح المنبي للبديعي ، الوساطة للقاضي الجرجاني ، المتنبي للأستاذ محمود محمد شاكر ، مع المتنبي لطه حسين وغيرها.

2 - وفيات الأعيان – ابن خلكان ٦٣/١.

ويتوزع شعر المتنبي على عدة أغـراض ، كالمـديح ، والفخـر ، والهجاء ، والرثاء ، والحكمة التي بثها في كثير من قصائده حتى اشتهر بها بين الشعراء.

مدح المتنبي كثيراً من المسئولين ، ونال عطاياهم ، ولكنه كان يتطلع إلى ما فوق العطايا والهبات ؛ ولهذا السبب ترفع عن مديح بعض الوجهاء والمسئولين ، كما فعل مع الصاحب بن عباد مما كان سبباً في خـصومة حادة تمثلت في رسالة الصاحب بن عباد في انتقاد شعر المتـنبي. وكـان الصاحب يطمع في زيارة المتنبي لما نزل أصبهان قبل أن يستورز فكتب إليه يلاطفه ، لكن المتنبي لم يقم له وزناً ولم يجبه عن مراده ؛ فكان ذلك سبباً في عداوة الصاحب له والطعن فيه ، وإنشائه رسالة في مساوئ شعره[1].

وممن مدحهم المتنبي: بدر بن عمار بن إسماعيل الأسـدي ، وأبـو العشائر ، وبنو حمدان – وسيف الدولة خاصة – ، وكافور الإخشيدي ، وعضد الدولة. ومع كثرة الممدوحين في شعره ، إلا أنه كـان يتعـصب للعربية والعروبة تعصباً واضحاً ، وبدت هذه العصبية "في جوار بدر بـن عمار بن إسماعيل الأسدي (بقي في جواره من سنة ٣٢٨ إلى أوائل سـنة ٣٣٣هـ) حيث بدأت عصبية أبي الطيب للعرب والعربية تسفر عن وجه وتجلو عن نفس الشاعر ظلمات قد ضربت عليها حجابها ، وهيـأت

---

1 – انظر: تيمية الدهر ٨٦/١.

شاعريته لما يستقبله لدى سيف الدولة العدواني العربي هازم الروم ، وقامع الدسائس الفاطمية بالشام وبعض العراق[1]".

وللمتنبي شعر كثير في بني حمدان ، وهو شعر يختلف عن بقية شعره الذي قاله في غيرهم ، فقد غيَّر منهجه الذي انتهجه في المديح قبل الاتصال بهم ، فكان المتنبي "إذا مدح بدأ بنفسه فذكرها ومجدها وعظمها، ثم يبدي آراءه في الدنيا ، ويكشف عن الثورة القائمة في ضميره وقلبه ، ثم ينذر ويوعد ويهدد. فلما بدأ اتصاله ببني حمدان ترك هذا المنهج ، وادخر قوته كلها لأمر غير هذا الأمر ، وأسبغ على بني حمدان ما كان يسبغ من قبل على نفسه من ثياب المجد ، فهو يصفهم كما كان يصف نفسه ، ويعلو بهم إلى غاية السمو في القوة والسلطان والسماحة والمروءة وعظم المطلب. و لم يذكر نفسه إلا حين يحرجه الوشاة والساعون بالشر بينه وبينهم[2]".

ويعد سيف الدولة ، علي بن حمدان ، من أهم ممدوحي المتنبي وأصدقائه ، الذين وجد فيهم الأمن والأمان ، والرجولة والبطولة ، وصورة العربي القائد الذي يقمع دولة الروم ، ويئد الفتن في مهادها. ورأى المتنبي في سيف الدولة "رمز العرب المفقودة .. فوجد فيه مَلِكَه

1 - المتنبي – محمود محمد شاكر – السفر الأول ص١٤١ – مطبعة المدني – القاهرة ١٣٩٧هـ (١٩٧٧م).
2 - المرجع نفسه ص١٨٣.

الأعلى الذي طالما حلم به ، كما وجد في حروبه وانتصاراته ضد الـــروم والبدو الموضوع الذي يشغل به قصائده ، فلم تعد كلاماً يقـــال ، وإنمـــا أصبحت ملاحم رائعة. ومن الحق أنه كان يستشعر معـــاني العروبـــة إلى أقصى حد ، وكل ذلك جعل سيف الدولة يملأ الفراغ الذي كان يحـــسه في داخله منذ مطالع حياته ، ومن هنا تختفي في مدائحه حينئذ ثورته على الناس والزمان ، وكأنها غاضت في نفسه[1]".

وكانت في نفس المتنبي وفي شعره نزعة عربية شديدة. ولا غرابـــة فهو عربي يمني ينتمي إلى قبيلة جُعفى من جهة الأب وهمدان مـــن جهـــة الأم. زد على ذلك أنه كان في عصر ضعفت فيه شوكة العرب وأصبحت أكثر البلدان الإسلامية في أيدي أمراء الفرس والترك .. وقد قوى هـــذا التعصب فيه إقامته في البادية مدة طويلة وتعود عاداتها ، ثم اتصاله بسيف الدولة زعيم العرب في عصره. ولذا يكثر في شعره الفخر بأصله العـــربي وذم الأعاجم[2]"

لهذه الأسباب مدح المتنبي سيف الدولة ، وصحبه زمنـــاً طـــويلاً ، وظل يحن إلى أيامه بعد أن فارقه.

---

1 - الفن ومذاهبه في الشعر العربي – د. شوقي ضيف صـــ٣٠٦ – دار المعارف بمـــصر – الطبعة التاسعة ١٩٧٦م.

2 - أمراء الشعر في العصر العباسي – أنيس المقدسي صـــ٣٤٦.

سيف الدولة الحمداني:

أما سيف الدولة – ممدوح المتنبي – فهو "الأمير علي بن حمـــدان ، ولد في ديار ربيعة سنة ٣٠١هـــ من أسرة حمدان التي لعبت دورها بمهارة على مسرح الأحداث العامة للدولة العباسية سياسياً وحربياً .. قتل أبـــوه ولم يزل الأمير لين العود رطب الإهاب فرعاه أخوه ناصر الدولة .. ونشأ الأمير الصغير أديباً محباً للأدباء والشعراء ؛ فيلتف حوله منهم عدد صـــغير في مستهل حياته لا يلبث أن يزداد مع الزمن حتى يصل إلى مـــا يقـــارب شعراء الرشيد عندما تتحقق أمنياته في ملك كبير بعد ذلك بعـــدد غـــير عديد من السنين. وكما نشأ الأمير أديباً ، فإنه نشأ فارساً أيـــضاً ينـــشد منفذ الطاقة الفروسية والحرب الأصيلة في نفسه[١]"

وكما كان سيف الدولة فارساً شجاعاً ، فقد كان – خاصة مـــن بني حمدان – "أكثرهم دهاء وأوسعهم حيلة ، وأشدهم حبـــاً للعـــرب ودينهم ، وأكثرهم سعياً في رد الحكومة والسلطان إلى العرب ، وأعظمهم همة في مساعي المجد لنفسه ولقومه ، وأكثرهم خلقاً آسراً ، وكان مـــن بينهم محباً للأدب قائماً على خدمته ، وكان بطبيعته شاعراً حلو اللـــسان خفيف الروح بياني الفكر. وكان مبغضاً للأعاجم ولسانهم الـــذي أرادوا أن يغلبوا به على فارس وغيرها كما فعل بنو بُوَيْة[٢]".

1 - سيف الدولة الحمداني – د. مصطفى الشكعة صـــ٥٣ ، ٥٤ – الناشر: مكتبة المتنبي القاهرة – الطبعة الثانية ١٣٩٧هـــ (١٩٧٧م).

2 - المتنبي – محمود محمد شاكر صـــ١٨٨ ، ١٨٩.

لذا أحب المتنبي سيف الدولة "وصوره في صورتين مختلفتين في كثير من الألوان ؛ تبين الأولى معالم الأمير الكريم ذي الهيبة والوقار. وتوضح الثانية صورة البطل المقدام الذي لا يعرف للهزيمة مطرحاً [١]".

خاض سيف الدولة حروباً كثيرة مع الأعاجم ، وبدأ هذه المعارك وهو صغير السن ، إلا أنه أبلى فيها بلاءً حسناً ، واستطاع بشجاعته ومهارته أن ينتصر عليهم انتصاراً مؤزراً ، فاقتحم بلاد الروم وتوغل إلى حصن زياد وفتحه وهو لا يكاد يبلغ الخامسة والعشرين ، وانطلق بعدها بعامين على "قاليقلا" ثم إلى قلونية" فيحرقها ويفتحها ويكتب إلى ملك الروم مستهزئاً به وبمنعة بلاده[٢].

واستمر سيف الدولة في نزال البيزنطيين ، يغالبهم ، ويثخن فيهم. ومن الأباطرة الذين نازلهم سيف الدولة "أخطر قائدين عرفتهما بيزنطة ونعني بهما "برداس فوكاس" ، ثم أخوه "نقفور فوكاس" ومن قبلهما قسطنطين ليكابينوس الذي تحداه سيف الدولة في غزواته قبل الملك. فأما "برداس فوكاس" فقد التقى بسيف الدولة في عدة معارك ، وعلى رغم كثافة جيوشه لم يحرز نصراً مشرفاً واحداً ، بل كان يفقد في كل معركة جانباً كبيراً من جيشه وعدداً خطيراً من بطارقته – أي قواده – ثم اكتمل

1 - المتنبي مالئ الدنيا وشاغل الناس – د. محمد التونجي صـ٨٦ – الطبعة الأولى ١٩٧٥م.

2 - انظر ذلك بالتفصيل في: سيف الدولة – د. مصطفى الشكعة صـ٥٥ ، ٥٦.

سوء حظه حينما التقى بسيف الدولة قرب مرعش سنة ٣٤٢هـ وفي هذه المعركة جرح برداس في وجهه ووقع ابنه قسطنطين أسيراً في يد سيف الدولة فضلاً عن أسرى آخرين من القواد[١] ".

وبرداس فوكاس هذا هو الذي لقي سيف الدولة في معركة قلعة الحدث التي سنتحدث عنها.

قلعة الحدث:

الحدث بالتحريك ، وآخره ثاء مثلة: قلعة حصينة بين ملطية وسمياط ومرعش من الثغور ، ويقال لها الحمراء لأن تربتها جميعاً حمراء ، وقلعتها على جبل يقال له الأحيدب ، وكان الحسن بن قحطبة قد غزا الثغور وأشج العدو ، فلما قدم علي المهدي أخبره بما في بناء طرطوس والمصيصة من المصلحة للمسلمين ، فأمر ببناء ذلك وأن يكون بالحدث ، وذلك في سنة ١٦٢هـ ، وقيل: إنَّ حصن الحدث مما فتح في أيام عمر – رضي الله عنه – وقال الواقدي: لما بنيت مدينة الحدث هجم الشتاء وكثرت الأمطار و لم يكن بناؤها وثيقاً فتهدم سور المدينة ونزل بها الروم فتفرق عنها من كان نزلها من الجند وغيرهم .. ثم ولي الخلافة الرشيد فدفع عنها الروم وأعاد عمارتها وأسكنها الجند.

1 - زبدة الحلب في تاريخ حلب لابن العديم ١٢٣/١ ، ١٢٤ – نقلاً عن: سيف الدولة – د. الشكعة صـ١٠٩ ، ١١٠.

وقال البلاذري: ثم لم ينته إليّ شيء من خبره إلا ما كان في أيـــام سيف الدولة بن حمدان ، وكان له به وقعات ، وخربه الروم في أيامـــه ، وخرج سيف الدولة في سنة ٣٤٣هـــ لعمارته ، فعمره وأتاه الدمستق في جموعه فردهم سيف الدولة منهزمين ، فقال المتنبي عند ذلك:

هل الحدث الحمراء تعرف لونهـــا وتعلم أي الساقيين الغمائـــم

وقال أبو الحسين بن كوجك النحوي وكان ملك الروم عاد لخراب الحدث فهزمهم سيف الدولة:

رام هدم الإســلام بالحـــدث المـــؤ ذن بنيانهـــــا بهـــــدم الـــــضلال
نكلت عنك منـــه نفـــسي ضـــعيف ســـلبته القـــوى رؤوس العـــوالي
فتـــوقّى الحِمـــام بـــالنفس والمـــا ل ، وبـــاع المقـــام بالارتحـــال
تـــرك الطـــير والوحـــوش ســـغاباً بـــين تلـــك الـــسهول والأجبـــال
ولكم وقعـــة قريـــت عفـــاة الـــــ طـــير فيهـــا جمـــاجم الأبطـــال[1]

1 - معجم البلدان ٢/٢٢٧ : ٢٢٩.

المعركة:

كان الروم قد أخضعوا الحدث ، منذ سنة ٣٣٧هـ فرأى سيف الدولة أن يعيدها عربية ؛ لأن أكثر سكانها من العرب ، فخرج إليها بجيش مجهز سنة ٣٤٣هـ ، وبدأ يعيد بناء سورها المنهدم ، وشارك الأمير بنفسه في وضع الأساس والحفر بيديه ، وما أن علم القائد البيزنطي "برداس فوكاس" باسترداد العرب لهذا الحصن العتيد حتى سارع إلى لقائهم في جيش كثيف يبلغ عدد جنوده "خمسين ألفاً من روم وروس وأرمن وصقلب وبلغار وخزر" والتحم الجيشان ، فحمل سيف الدولة بنفسه ومعه خمسمائة من غلمانه على هذا الجيش الكثيف في معركة مريرة استمرت من أول النهار إلى وقت العصر ، كان النصر فيها حليف سيف الدولة ، وقُتل في هذه المعركة نحو ثلاثة آلاف من جنود البيزنطيين فضلاً عن عدد ضخم من الأسرى من بطارقة وجنود في مقدمتهم "تودس الأعور" بطريق سمندو وصهر فوكاس ، كما أسر أيضاً ابن ابنة الدمستق[1].

وكان البيزنطيون يلقبون حكامهم وقوادهم بألقاب يعرفون بها ، كالدمستق ، والبازيل ، فالدمستق "هو لقب إمبراطور القسطنطينية

1 - الدول المنقطعة ، لابن ظافر (مخطوط بجدار الكتب المصرية) صـ١٠٦ ، ١٠٧ – نقلاً عن: سيف الدولة – د. مصطفى الشكعة صـ١٢٨.

ومعناه: الخادم الأعظم لجيش الشرق ، أو القائد الأعظم لجيش آسيا. وكانت كلمة البازيل لكل عاهل على القسطنطينية أيضاً [1]".

وكما شهد سيف الدولة هذه المعركة ، شهدها المتنبي أيضاً ، إذ كان في معية سيف الدولة ، وظل في معيته "من سنة ٣٣٧ إلى سنة ٣٤٦هـ"[2]. وأشاد فيها ببطولاته ومعاركه ، ودبج فيه خير مدائحه.

ميمية المتنبي:

وقال يمدحه (سيف الدولة) ويذكر بناءه ثغر الحدث سنة ثلاث وأربعين وثلاثمائة:

على قدر أهل العزم تأتي العزائم	وتأتي على قدر الكرام المكارم
وتعظم في عين الصغير صغارها	وتصغر في عين العظيم العظائم
يُكلف سيف الدولة الجيش همه	وقد عجزت عنه الجيوش الخضارم
ويطلب عند الناس ما عند نفسه	وذلك ما لا تدّعيه الضراغم
يفدّى أتم الطير عمراً سلاحه	نسور الملا أحداثه والقشاعم
وما ضرها خلق بغير مخالب	وقد خُلقت أسيافه والقوائم
هل الحدث الحمراء تعرف لونها	وتعلم أي الساقيين الغمائم
سقتها الغمام الغرقبل نزوله	فلما دنا منها سقتها الجماجم

1 - شعر الحرب في أدب العرب – د. زكي المحاسني صـ٢٦٩ ، ٢٧٠.

2 - المتنبي – محمود محمد شاكر صـ٢١٨.

بناها فأعلى والقنا تقرع القنا ... وموج المنايا حولها متلاطم
وكان بها مثل الجنون فأصبحت ... ومن جثث القتلى عليها تمائم
طريدة دهر ساقها فرددتها ... على الدين بالخطّي والدهر راغم
تفيت الليالي كل شيء أخَذْتَه ... وهنّ لما يأخذن منك غوارم
إذا كان ما تنويه فعلاً مضارعاً ... مضى قبل أن تُلقى عليه الجوازم
وكيف ترجّى الروم والروس هدمها ... وذا الطعن أساس لها ودعائم
وقد حاكموها والمنايا حواكم ... فما مات مظلوم ولا عاش ظالم
أتوك يجرون الحديد كأنهم ... سروا بجياد ما لهن قوائم
إذا برقوا لم تُعرف البيض منهم ... ثيابهم من مثلها والعمائم
خميس بشرق الأرض والغرب زحفه ... وفي أذن الجوزاء منه زمازم
تجمّع فيه كُل لِسْن وأُمَّة ... فما تُفهم الحدّاثَ إلا التراجمُ
فلله وقت ذوَّب الغش نارُه ... فلم يبق إلا صارم أو ضُبارم
تقطّع ما لا يقطع الدرع والقنا ... وفرّ من الأبطال من لا يصادم
وقفتَ وما في الموت شك لواقف ... كأنك في جفن الردى وهو نائم
تمر بك الأبطال كلمى هزيمةً ... ووجهك وضاح وثغرك باسم
تجاوزتَ مقدار الشجاعة والنهى ... إلى قول قوم أنت بالغيب عالم
ضممتَ جناحيهم على القلب ضمّة ... تموت الخوافي تحتها والقوادم
بضرب أتى الهامات والنصر غائب ... وصار إلى اللبات والنصر قادم
حقرت الردينيات حتى طرحتها ... وحتى كأن السيف للرمح شاتم
ومن طلب الفتح الجليل فإنما ... مفاتيحه البيضُ الخفاف الصوارم
نثرتَهم فوق الأحيدب كُلَّه ... كما نُثرت فوق العروس الدراهم

تدوس بك الخيلُ الوكور على الذرى وقد كثرت حول الوكــور المطــاعم
تظن فــراخ الفُــتخ أنــك زرتَهــا بأُمّاتهــا وهـــي العتــاق الــصلادم
إذا زلِقـــتْ مـــشَّيْتَها ببطونهـــا كما تتمــشى في الــصعيد الأراقــم
أفي كل يــوم ذا الدمــستق مقــدم قفاه علــى الإقــدام للوجــه لائــم
أينكر ريحَ الليــث حــتى يذوقــه وقد عرفتْ ريح الليــوث البــهائم؟
وقد فجّعتــه بابنــه وابــن صــهره وبالصهر حمــلات الأمــير الغواشــم
مضى يشكر الأصحاب في فوته الظّبى بمــا شــغلتْها هــامُهُم والمعاصــم
ويَفهــم صــوتَ المــشرفية فــيهم على أن أصوات الــسيوف أعــاجم
يُسَرّ بمــا أعطــاك لا عــن جهالــة ولكــنَّ مغنومــاً نجــا منــك غــانم
ولــستَ مليكــاً هازمــاً لــنظيره ولكنَّــك التوحيــد للــشرك هــازم
تــشرفُ عــدنانٌ بــه لا ربيعــةٌ وتفتخــر الــدنيا بــه لا العواصــم
لك الحمد في الدّر الــذي لي لفظــه فإنــــك معطيــــه وإني نــــاظم
وإني لتعدو بي عطايــاك في الــوغى فــلا أنــا مــذموم ولا أنــت نــادم
على كــل طيــار إليهــا برجلــه إذا وقعــت في مِــسْمعيه الغمــاغم
ألا أيها السيف الذي لــيس مغمــداً ولا فيــه مرتــاب ولا منــه عاصــم
هنيئاً لضرب الهام والمجــدِ والعُلــى وراجيــك والإســلامِ أنــك ســالم
ولِمْ لا يقي الرحمنُ حدّيك ما وَقَــى وتفليقُه هــامَ العِــدَا بــك دائــم[1]

1 - شرح ديوان المتنبي – وضعه: عبد الرحمن البرقــوقي ٤/٩٤ : ١٠٨ – الناشــر: دار الكتاب العربي – بيروت – لبنان ١٤٠٧هـــ (١٩٨٦م).

الفصل الثاني

الدراسة الموضوعية للقصيدتين

قصيدتان من عيون الشعر العربي في فن الحرب ؛ ابتهاجاً بالنصر ، وتخليداً للقواد ، وسخرية من الأعداء. ثم إنهما لشاعرين كبيرين من شعراء العربية ، لكل منهما مذهبه الخاص ، وعبقريته الفذة ن لذا قامت حولهما خصومات ومعارك طاحنة أثرت الحركة النقدية ، وأضافت للتاريخ النقدي مجموعة من أعظم كتب النقد.

وإذا كان لكل عصر سمات خاصة في الشعر ، فإن لكل غرض أيضاً سمات خاصة قررها النقاد من خلال استقراء نصوص الشعراء في كل عصر ومصر ، فالمديح غير الغزل وهما غير الرثاء والفخر.

والقصيدتان من شعر الحرب ، ولشعر الحرب سماته وخصائصه ، وهما من الشعر العباسي ، ورأى الدكتور / زكي المحاسني أن شعر الحرب في الأدب العباسي لم يحد عن جوهر خصائصه التي عرفت له في العصر الأموي ، فإن آلات الحرب لم يطرأ عليها تغير ولا تطور ، وبقيت المشابهة رابضة على أكثر المعاني. لكنه رأى أن حضارة العصر العباسي وتمازج العرب بالأمم الفارسية والتركية والرومية ، وفيض الأدب والعلم وعناصر الفلسفة أدى إلى تطور بعيد في طرق الأداء ، وأفضى ذلك التطور إلى ابتكار معان حديثة ، واتباع أساليب مبتكرة في الصيغة.

ونجمل تلك التطورات التي حدثت في المعاني الحماسية التي جاء بها أبو تمام ومزج الحكمة بالتصوير الفني ، والمزاوجة اللفظية والمطابقة بين الكلام ، التزويق في الوصف عند البحتري ، والتهويل في الصورة وهو فن أبي الطيب المتنبي ، وشيوع الحماسة في وصف الحروب الرومية في شعر العصر العباسي ، وضعف النزعة العصبية السياسية في شعر الحرب زمن العباسيين[1].

وهذه السمات تحدث عنها حازم القرطاجني ، فقال: "ومما يجب اعتماده حيث يقع وصف الحرب أن تُفخَّم العبارات وتُهول الأوصاف ، ويحسن الاطراد في اقتصاص ما وقع من ذلك ، وأن تراح النفوس حيث يقع التمادي في ذلك بإيراد معاني تستطيبها وتبسط ما قبض منها تهويل وصف الحرب. وتحسن الإحالة على التواريخ في هذا الموضع[2] ".

وأبو تمام والمتنبي من أئمة الشعراء في فن الحرب ، حيث أجادا في هذا الفن إجادة بالغة ، فكان لهما "روائع في شعر الحرب خاصة ، بوصف البطولة وتصوير الفروسية ليجعلاها سجلاً شعرياً للحرب

---

1 - انظر: شعر الحرب في أدب العرب – د. زكي المحاسني صـ٢٣٩ ، ٢٤٠.

2 - منهاج البلغاء وسراج الأدباء – حازم القرطاجني صـ٣٠٦ – تقديم وتحقيق محمد الحبيب ابن الخوجة – دار الغرب الإسلامي – بيروت – لبنان – الطبعة الثالثة ١٩٨٦م.

مقصودة لذاها ، فكأهما مضيا في هذه النزعة على مذهب من يقول (الفن للفن) [١] ".

وقد شهد كثير من النقاد للشاعرين بالإجادة في الشعر عامة وفي هذا الفن خاصة ، فقال الشريف الرضي : "أما أبو تمام فخطيب منبر ، وأما البحتري فواصف جؤذر ، وأما أبو الطيب المتنبي فقائد عسكر. قال ابن الأثير: "الألفاظ تجري من السمع مجرى الأشخاص من البصر .. ولهذا ترى ألفاظ أبي تمام كأها رجال قد ركبوا خيولهم ، واستلأموا سلاحهم ، وتأهبوا للطراد[٢] ".

واعترف المتنبي نفسه بفضل أبي تمام وعبقريته ، فقال بعد أن سمع شعراً له في مجلس: "أوَ يجوز للأديب ألا يعرف شعر أبي تمام ، وهو أستاذ كل من قال الشعر بعده .. ومازال بعد ذلك ينشد بدائع أبي تمام ، وكان يروي جميع شعره[٣] ". وما ذلك إلا لأن أبا تمام صاحب طريقة فنية بديعة – مهما قيل في انتقاصه – "وإذا كان أبو تمام من طلع الشام فإن طريقته سميت بالطريقة الشامية في الشعر العربي عصر بني العباس وطبع على غرارها ، الشاميان البحتري وأبو العلاء ... فإذا درست فنه في شعر الحرب ، فإنما أدرس إذن فنه في كل شعره. ولعلي أجد من جرس الكلام

---

1 - شعر الحرب في أدب العرب – مرجع سابق صـ٢٤٠.

2 - الصبح المنبي عن حيثية المتنبي – الشيخ / يوسف البديعي صـ١٧٩. تحقيق: مصطفى السقا وآخرين – دار المعارف بمصر – الطبعة الثانية ١٩٧٧م.

3 - المصدر نفسه صـ١٤٣.

في حربيات أبي تمام ، ما يوافق جرس السلاح وصليل الـــدروع وخفـــق البنود والموسيقى العسكرية[1] ".

وقال ابن الأثير عن حربيات المتنبي: "واختص بالإبداع في مواضـــع القتال ، وذاك أنه إذا خاض في وصف معركة كان لسانه أمـــضى مـــن نصالها ، وأشجع من أبطالها ، وقامت أقواله للسامع مقام أفعالها ، حـــتى يظن أن الفريقين قد تقابلا ، ولاشك أنه كان يشهد الحروب مع ســـيف الدولة ، فيصف لسانه ما أداه عيانه[2] ".

وقال عنه الدكتور زكي المحاسني: "شاعرنا الأعظم الخالد أبو الطيب المتنبي يكاد يملك على حواسنا في الدهشة والإعجاب بسيف الدولة ، فإني وجدته يبذ هوميروس في شعره الحماسي والحربي ، وعنده من أوصـــاف القتال وما دار في المواقع والمعارك ما يبلغ مداه في دقة الوصف هوميروس أو قد يزيد عليه في أوصافه لحرب طروادة[3] ".

وجعل النقاد أبا الطيب "إمام هذا الفن ، ونعتوه بأنه قائد عسكر ، فهو ينقل القارئ إلى المعركة يشهد صليل السيوف وقراع القنا وصـــهيل الخيل وصياح المحاربين ودماء القتلى وتأوهات الجرحى. وكـــان ســـيف الدولة قد وكّل به من دربه على ركوب الخيل والفروسية حتى يـــصحبه

1 - شعر الحرب في أدب العرب – د. زكي المحاسني صـــ٢٣١.

2 - الصبح المنبي صـــ١٧٨.

3 - شعر الحرب في أدب العرب – د. زكي المحاسني صـــ٢٣٧.

معه في المعارك. ولقد وصف المتنبي معارك سيف الدولة مـــع البيـــزنطيين أجمل وصف وأروعه ... والحق أن المتنبي وهو في رحاب سيف الدولة قد أهدى إلى الشعر العربي فنّاً جديداً نفيساً من فنون الشعر هو إجادة وصف المعارك الحربية وصفاً لم يُسبق إليه من حيث الاحتشاد والاحتفال ، وأما كثير من المعاني فقد سبقه إليها بعض أعلام الشعر السابقين مـــن أمثـــال مسلم بن الوليد وأبي تمام[1] ".

ويُرجع الدكتور شوقي ضيف إجادة المتنبي وصف الحرب – خاصة حروب سيف الدولة – إلى سببين: "أما السبب الأول فهو موقف سيف الدولة من الروم وحمايته للعرب ، وكأن المتنبي يشعر بعروبتـــه شـــعوراً عميقاً، وأما السبب الثاني فيرجع إلى أن المتنبي نشأ ثائراً ، يريد أن يـــرد للعرب دولتهم المفقودة ، وحمل السيف وسلّه ، ولم يكتب النجاح لثورته ، غير أن نفسه ظلت تموج بالثورة ومنازلة الأعداء ، وأيضاً فإن المتـــنبي كان فارساً يمجد الفروسية ، وبذلك اجتمعت له عناصر مادية ونفـــسية كثيرة جعلت وصفه لحرب سيف الدولة شُعَلاً من الحماسة القوية[2] ".

فالمتنبي عرف الشعر الحربي "منذ يفاعته ، ولم يتوقف عن ذكره حتى آخر قصيدة قالها في شيراز ، ولم يصل إلى سيف الدولة ... والذي دعـــا

---

1 – سيف الدولة الحمداني – د. مصطفى الشكعة صـــ٢٠٧.

2 – الفن ومذاهبه في الشعر العربي – د. شوقي يف صـــ٣٤٧.

الشاعر إلى الإكثار من وصف الحروب أن الأوضاع في سورية كانت في اضطراب ، والأمصار في تطاحن ، فصار من الضروري له أن يكثر من مدح الأمراء بانتصارهم ، بالإضافة إلى رغبته الملحة في القتل والحرب ، ونفسه الطامحة أصلاً إلى السفك وهدر الدماء ... فلم يكن شعر الحرب جديداً على المتنبي عندما أخذ في تسجيل وقائع الحروب ضد الروم ، ولكن الجديد في الأمر أن الشاعر خص قصائد كاملة لهذه المعارك ، و لم يفعل ذلك قبل دخوله معارك سيف الدولة[1] ".

ونحن نوافق الدكتور / محمد التونجي على ما قاله من إبداع المتنبي في فن الحرب ، كما نوافقه على تخصيصه قصائد كاملة لحروب الروم ، إلا أننا لا نوافقه على جعل المتنبي محبًّا للقتل وهدر الدماء – كما يقول – وإنما السبب الحقيقي في إجادته هذا الفن هو نفسه العربية الأصيلة ، وحبه للعرب وتمنيه لوطنه الكبير الخير والسعادة في تحكم العرب فقط في زمام الأمور.

ويصف ابن رشد شعره الحربي وجودته فيه ، فيقول: "والمتنبي أفضل من يوجد له هذا الصنف من التخيل. وذلك كثير في أشعاره ، ولذلك يحكى عنه أنه كان لا يريد أن يصف الوقائع التي لم يشهدها مع سيف الدولة[2] ".

---

1 - المتنبي مالئ الدنيا وشاغل الناس – د. محمد التونجي صـ٩٠ ، ٩١.

2 - مقالات على علم الأدب ، لشيخو ٢/٢٨٠ – نقلاً عن: أمراء الشعر العربي في العصر العباسي صـ٣٥٨.

وإذا كان النقاد والدارسون قد أكثروا الحديث عن حربيات المتنبي وأقلّوا في أبي تمام ، فإن ذلك يرجع إلى عوامل الزمن الذي قد تغير بعد أبي تمام وقصيدته في فتح عمورية ، إذ إن الفرق بين الوقعتين مائة وعشرون عاماً هجرياً فأصبح الزمن غير الزمن ، وتغيرت الأوضاع السياسية – داخلياً وخارجياً – كما هو معروف لدى دارسي التاريخ ، وأصبح سيف الدولة رمزاً للعرب والعروبة في زمنه ، ينافح عن الأمة ، ويذود عن بيضة الإسلام ضد الروم وغيرهم.

نظرة عامة في القصيدتين:

وبإلقاء نظرة سريعة على القصيدتين نستطيع أن نوجز ما فيهما من حسنات بديعة ، وما بهما من تقصير ، فمن حسنات أبي تمام في قصيدته: روعة الألفاظ ، وحسن الصياغة ، وروعة التصوير ، وجمال المعنى ، ورقة الموسيقى ، وبهاء القافية ، وحسن البدء والختام. ومنها: سبقه إلى استعارة ليس لها مثيل في تاريخ الشعر العربي ، وهي في قوله:

حتى إذا مخض الله السنين لها   مخض البخيلة كانت زبدة الحلب

قال شراح الديوان: هذه استعارة لم تستعمل قبل الطائي[1].

1 - ديوان أبي تمام ١/٤٩.

ومنها: حسن التقسيم ، في قوله:

تدبيـــر معتصـــم بالله منتقـــم   لله مرتقـــب في الله مرتـــغـــب

ولا ننسى ما أحدثه هذا التقسيم من روعـــة في الموســـيقى والأداء التعبيري ، والجمال التصويري !

ومنها: اختراع ضرب المثل لشدة الحرب واضطرامها في قوله:

إن يَعْدُ من حرها عدو الظليم فقد   أوسعتَ جاحمها من كثرة الحطب

قال التبريزي: وهذا مثل ضربه لشدة الحرب واضـــطرامها. وقـــال ابـــن المستوفي: ومثله قول الكحلبة العُرني:

فإن تنج منها يا حزيم بن طـــارق   فقد تركتْ ما خلف ظهرك بلقعا

يقول: إن تنج من فرسي فقد تركت ما وراءك من الأرض المملوءة بما لك وجيشك خالياً ، أي استأصلته وغلبتك عليه[1].

ولا يخفى جمال مَثَل أبي تمام وروعته وجدته.

---

1 - ديوان أبي تمام ٦٩/١.

ومن الأمثال التي ضربها أبو تمام ، قوله:

تخرصاً وأحاديثاً ملفقة ليست بنبع إذا عدت ولا غَرَب

فالنبع شجر صلب ينبت في رؤوس الجبال وتتخذ منه القسي ، ومن أمثالهم: "النبع يقرع بعضُه بعضاً " يضرب مثلاً للأشداء.
والغَرَب: شجر ينبت على الأنهار وليست له قوة.
قال المعري: هذه الأحاديث ليست بقوية ولا ضعيفة ، أي هي غير شيء.
وقال المرزوقي: وقد استعمل أبو تمام هذا المثل في بيت آخر معناه الذي يقصد إليه أبين وهو:

هيهات أبدى اليقين صفحته وبان نبع الفخار من غربه[1]

وهذا مثل جيد ، استطاع أبو تمام بضربه أن يقرب المعنى ، وأن يرد الاعتقاد في أحاديث الدجل ، وذلك بتقريب المثل.
ومن الأمثال التي ضربها واستعان بها أبو تمام قوله: وتبرز الأرض في أثوابها القَشب.
قال المرزوقي: "وتبرز الأرض" مثل لتعظيم الفتح ومسّرة أهل الإسلام[2].

1 - ديوان أبي تمام ٤٢/١ ، ٤٣.
2 - المصدر نفسه ٤٦/١.

وهذا المثل قد أشاع البهجة في الفرحة بالانتصار ، ووسّع من دائرة الاحتفاء به والفرحة بحدوثه.

ومن الأمثال التي أشبعت بالحكمة قوله:

إن الحمامين من بيض ومن سمــــر   دلوا الحياتين من ماء ومن عُشُب

قال الصولي: يقول: لا تنال لذة الأكـــل والـــشرب إلا بالرمـــاح والسيوف ، وضرب لهذا مثلاً فقال: هما دلوا الحياتين ، يعني أن الحمامين بالبيض والسمر دلوا الحياتين: الحياة بالماء والحياة بالنبات ، إذ كان لابـــد منهما أو مما يحيا بهما ، فكأنهما يستقيان هاتين كمـــا يـــستقي الـــدلوان الماء[1].

ومن حسنات القصيدة : حسن الخطاب ، وحسب أدب الكلام مع الملوك والخلفاء الذي أكد عليه النقاد ، ووجهوا الشعراء لمثله ، ووصـــفوا من حاد عنه بجفاء الخلق وسوء الخطاب ، وذلك قوله:

لقـــد تركـــت أمير المؤمنين بها   للنار يوماً ذليل الصخر والخشب

وقوله:

خليفة الله جازى الله سعيك عن   جرثومة الدين والإسلام والحسب

1 - ديوان أبي تمام ٦١/١.

ومنها: روعة المعاني وجدتها في ربط الأحداث بالتاريخ والتشوق لأصولها المجيدة ، في قوله:

إن كان بين صروف الدهر من رحم   موصولة أو ذمـام غـير منقـضب
فبين أيامـك الـلاتي نُـصرت بهـا   وبين أيـام "بـدر" أقـرب النـسب
أبقت بني الأصفر المراض كـاسمهم   صفر الوجوه وجلّت أوجـه العـرب

وأمام تلك الجماليات توجد بعض المآخذ والهنات التي لا تقدح في جمال العمل وروعته ، وإنما هي من قبيل النقد الموجّه الـذي يتطلـع إلى كمال العمل وحسن بنائه. فمن هذه المآخذ: لجـوء أبي تمـام لركـوب الضرورة الشعرية ، والتي تمثلت عنده في صرف الممنوع مـن الـصرف بتنوينه في أكثر من موضع ، كقوله:

تخرصـاً وأحاديثـاً ملفقـة   عجائبـاً زعمـوا الأيـام
مـن عهـد إسـكندرٍ   جرى لها الفأل برحـاً يـوم أنقـرةٍ

أمانياً سلبتهم نجح هاجسها ... "قال المحقق عند هذا البيت: في ظ:ويروي "أمنيةٌ"[1] وعليه فلا ضرورة هنا.

ومن هذه المآخذ: مخالفة الصحيح في القياس اللغوي واللجـوء إلى الضعيف ، وذلك في قوله:

---

1 - ديوان أبي تمام ٤٢/١ هامش (٤).

لم تطلع الشمس فيه يوم ذاك على   بان بأهل و لم تغرب على عزب

قال المعري في شرح هذا البيت: أهل اللغة يختارون بنى فلان على أهله ، ويكرهون بني بها. ولا يمنع القياس دخول الباء في هذا الموضع ، ويكـــون المعنى: بنى بأهله أي من أجلهم ، كما يقال للرجل خذ هذا بما فعلت في الدهر الأول أي من أجله[1].

وأورد المحقق رد ابن المستوفي على أبي العلاء في هذا الموضع ، فقال: قال ابن المستوفي في الرد على أبي العلاء: واللغة إنما يوقف عليهـــا مـــع السماع ، والأول الصحيح[2].

ونحن مع ابن المستوفي ، إذ الضرورة هي التي ألجـــأت أبـــا تمـــام لارتكاب المخالفة ، وإلا لو اتبعها لانكسر البيت.

ومن هذه المآخذ: سوء التقسيم والمقابلة في قوله:

فتح الفتوح تعالى أن يحيـــط بـــه   نظم من الشعر أو نثر من الخُطب

فالنثر يقابل النظم ، وهو قسيمه ، ولكن الخطب قد تقابل الـــشعر وقد لا تقابله إذ إنها ليست الوحيدة من ألوان النثر ، فقد يقابله الرســـائل

1 - ديوان أبي تمام ١/٥٥ ، ٥٦.

2 - المصدر نفسه ٥٦/١ هامش (١).

أو الكتابة بوجه عام ، وأبو تمام شاعر العصر العباسي الذي ازدهر فيه الأدب بجميع ألوانه ، ولكنها ضرورة القافية التي ألجأته لارتكاب هذا الخطأ.

كما أن في البيت مأخذاً معنوياً آخر لخصّه ابن المستوفي في قوله: موضع "تعالى" حال ، وأنا أكره رواية "تعالى" وما بعدها لأن مثله يقع في الثناء على الله – عز وجل –[1].

ونحن نتفق مع ابن المستوفي في كراهية تلك الرواية ، وفي إضفاء هذا الثناء الخاص بالله – عز وجل – على شيء من مخلوقاته.

ومن الضرورات: تحريك الساكن في قوله: إن الحمامين من بيض ومن سُمُر. قال الصولي: والأكثر في السمر تسكين الميم ، وقلما يستعملون تحريكها في غير الجمع إذا كان أفعل فعلاء ، إلا أن يضطر شاعر فيقول السُمر في جمع أسمر[2].

ومنها: المبالغة التي خرجت عن المألوف في قوله:

لو لم يفد جحفلاً يوم الوغى لغدا   من نفسه وحدها في جحفل لجب

---

1 - ديوان أبي تمام ١/٤٥ – هامش (٣).

2 - المصدر نفسه ١/٦١.

فهي مبالغة ممقوتة ، حيث جعل الممدوح جيشاً عظيماً وحده ، وهذا يغنيه عن قيادة الجيش والمخاطرة بنفسه ومقابلة العدو منفرداً ، وإنما تلك مبالغة من أبي تمام. وهي وإن جازت في المديح إلا أن لها أصولاً وضوابط تقرب المعنى إلى الأذهان ، وتجعلها مقبولة ، مثل قوله: كأن وغيرها.

ومنها: تغيير الاسم الأعجمي ، وقد ورد منها في القصيدة ثلاثة أسماء ، هي: عمورية ، إسكندر ، توفلس. فأما "عمورية" فقد أوردها أبو تمام بتشديد الميم والياء. وقال المعري: وقد روي عنه في قصيدة أخرى بتخفيف الحرفين ، والشعراء يجترئون على تغيير الأسماء الأعجمية أكثر من اجترائهم على تغيير الأسماء العربية[1]. وقد ذكرها ياقوت ووصفها بأنها مشددة الميم فقط ، وأما "إسكندر" فقد أوردها أبو تمام هكذا ، وقال المعري: المتعارف بين الناس "الإسكندر" بالألف واللام فحذفهما منه. وقد فعل ذلك في غير موضع كقوله: "أندلسٍ" ، "وجد فرزدقٍ بنوار" ولم تجر العادة أن يُستعمل "الفرزدق" ولا "الأندلس" إلا بالألف واللام[2].

كما ذكر "توفلس" هكذا محرفة عن الأصل "ثيوفيلوس" كما نصت عليه كتب التاريخ العربية والإفرنجية. ونحن نرجح أن الذي دعاه لهذا هو الضرورة الشعرية في الأبيات التي وردت فيها.

---

1 - ديوان أبي تمام ١/٤٦.

2 - المصدر نفسه ١/٤٨.

ومنها: استخدام القليل من الكلمات ، وذلك في قولـه "ضحى شحب". قال المعري: و "شحب" كلمة قليلة ، وإنما الكلام "شاحب" أي متغير[1].

ومنها: ذكر التين والعنب في قوله: "قبل نضج التين والعنب". قال الصولي راداً على من طعن فيه: إن كان هذا لأن التين والعنب ليس مما يذكر في الشعر وأنه مستهجن فقد قال عبد الله بن قيس الرقيات:

سقيا لحلوان ذي الكروم وما صُنِّف من تينه ومن عنبه

وقد عاب عليه من لم يدر قصده[2]. ونحن بدورنا نرد هذا العيب ؛ لأن البيت مناسب لغرض القصيدة وما شاع قبل الفتح من خرافات وأباطيل وأنها لا تُفتح إلا في أيام نضج التين والعنب فأخزاهم الله وفتح المدينة على المسلمين ، فعرّض أبو تمام ساخراً منهم بهذا البيت.

وإذا ألقينا النظرة السريعة ذاتها على قصيدة المتنبي ، وجدنا فيها من الحسنات والمآخذ مالا يسلم منه شاعر.

---

1 - ديوان أبي تمام ١/٥٤.

2 - المصدر نفسه ١/٦٩.

فمن حسنات المتنبي في قصيدته جودة السبك ، وجمال التـــشبيه ، ودقة الألفاظ ، وبهاء المعاني ، وفخامة الجرس الموسيقي ، وحسن البـــدء والختام. ومنها: سبقه إلى بعض المعاني ، كقوله:

خميس بشرق الأرض والغرب زحفه ... وفي أذن الجوزاء منه زمـــازم

قال الشراح: و لم يسمع في وصف جيش مثل هذا ومثل قول أبي تمام:

ملأ الملا عُصبـــاً فكـــاد بأن يُرى ... لا خَلْف فيه ولا له قُدّام[1].

وقوله:

ولســـت مـــليكاً هـــازماً لنظيره ... ولكنك التوحيد للشرك هازم

فهو معنى رائع ، حيث جعل الصراع بين الملّتين لا بين شخصين!.

ومنها: جمال التشبيه في قوله:

نثرتهم فوق الأحيدب كلـــه ... كما نثرت فوق العروس الدراهم

قال العكبري: وهذا من محاسن أبي الطيب ، وقد أشار بهذا إلى أن سيف الدولة تحكّم في الروم قتلاً وأسراً ، ونثر جيشهم فوق هذا الجبل نثراً [2].

---

1 - شرح ديوان المتنبي ٤/١٠٠.

2 - المصدر نفسه ٤/١٠٤ – هامش (٣).

ومنها: ضرب المثل ، في قوله:

يُسّر بما أعطـــاك لا عن جهـــالة ولكنك مغنـــوماً نجا منك غـــانم

قال العكبري: وهذا مثل قول بسطام ابن قيس في المثل: السلامة إحـــدى الغنيمتين[1].

ولكننا نرى تفوق مَثَل المتنبي على قول بسطام لـــسببين: أولهمـــا ، مجيئه شعراً منظوماً فهو بهذا أسرع في الحفظ وأبقى ، وثانيهمـــا ، دقـــة التعبير وسلاسته واختيار التجنيس قالباً لهذا المثل.

ومنها حسن الخطاب في قوله:

ألا أيها السيف الذي ليس مغمدا ولا فيه مرتاب ولا منه عاصـــم

كما لا يخفى ما فيه من مجانسة لفظية وتورية في كلمة (السيف) ، وحسن اختياره لأحب ألقاب الممدوح – المخاطب-.

وقوله:

يكلف سيف الدولة الجيش همه وقد عجزت عنه الجيوش الخضارم

و لم تخل القصيدة من بعض المآخذ التي وقع فيها المتـــنبي ، فمنـــها: مخالفة القواعد اللغوية التي ألجأته إليها الضرورة ، وذلك كصرف الممنوع من الصرف بتنوينه مثل:

---

1 - شرح ديوان المتنبي ٤/١٠٧ – هامش (٤).

وما ضرها خلق بغير مخالب ، وقد حاكموها والمنايا حواكمٌ ،
تشـــرف عدنانٌ به لا ربيعةٌ ... .

وكتسكين المتحرك في قوله: ولِمْ لا يقي الرحمن .... ،
وفي قوله: وبالصهر حَمْلات .... ، تفيتُ الليالي. وقيل هي لغة.

ومنها: الإكثار من قول "ذا" وتلك ظاهرة عامة في شعره ، تحدث عنها النقاد وعللوها ، وقد عابها الشيخ البديعي وجعلها مـــن الركاكـــة والسفسطة بألفاظ العامة والسوقة ومعانيهم ، فقال: "ومنها الاستكثار من قول "ذا" قال القاضي: وهي ضعيفة في صنعة الشعر ، دالة على التكلف ، وربما وافقت موضعاً تليق به ، فاكتسبت قبولاً ، فأمـــا في مثـــل قولـــه: "وذكر أمثلة كثيرة من شعره) ، وقوله:

أفي كل يوم ذا الدمستق مقدم قفاه على الإقدام للوجه لائم

فهو كما تراه سخافة وضعف ، ولو تصفحت شعره لوجدت فيـــه أضعاف ما ذكرناه من هذه الإشارة ، وأنت لا تجد منها في عدة دواوين جاهلية حرفاً ، والمحدثون أكثر استعانة بها ، لكن في الفرط والنـــدرة ، أو على سبيل الغلط والفلتة[1] ".

---

1 - الصبح المنبي صـــ٣٧٤ ، ٣٧٥.

وعلل الدكتور / شوقي ضيف هذه الظاهرة بقوله: "جاءت هـــذه الكثرة من أسماء الإشارة من هذا التصنع لعبارات المتصوفة التي تعتمد على الكشف والمخاطبة في الحضرة ، كما جاءته لنفس السبب هذه الكثرة من حروف النداء ... ومن أجل ذلك كنا نجد عند المتنبي كل ما يميز تعـــبير المتصوفة من انحرافات والتواءات كأن يكثر من الضمائر أو مـــن أسمـــاء الإشارة أو من حروف النداء أو من التصغير فيبعث في التعبير حالاً غريبة من التعقيد. وقد يكون من الغريب أن نربط بين هذه الأشياء والتصوف ، ولكنها الحقيقة الواقعة[١] ".

وقد أورد النقاد كثيراً من سيئاته وهي في مجملها عبارة عن التعمية أو الإبهام في كثير من أبياته ، شذوذه اللغوي ، تكلفه وتعسفه[٢].

وعلى كل حال فقد أتى بـــ "ذا" ثلاث مرات في هذه القـــصيدة ، مرة في البيت الذي أورده البديعي سابقاً ، والمرة الثانية في قوله:

ويطلب عند الناس ما عند نفسه وذلك مالا تدَّعـــيه الضراغـــم

والثالثة في قوله:

وكيف ترجي الروم والروس هدمها وذا الطعن آســـاس لها ودعائم

---

1 - الفن ومذاهبه في الشعر العربي – د. شوقي ضيف صـــ٣١٨ ، ٣٢٠.

2 - انظر: أمراء الشعر في العصر العباسي – أنيس المقدسي صـــ٣٥٢.

ومنها: المبالغة ، وهي وإن كانت مطلوبة في المديح والفخر وفي بعض الصور الحماسية ، إلا أنه يجب أن تكون مقبولة وممكنة بخلاف المبالغة الممقوتة التي عابها النقاد.

فمنها قوله عن الخيول في المعركة:

إذا زلقت مشيتها ببطونها كما تتمشى في الصعيد الأراقم

ونحن نراها من المبالغة الممقوتة ؛ لأنه شيء لا يعقل ولا يصدقه الواقع ولو مرة واحدة.

ومنها قوله:

يكلف سيف الدولة الجيش همه وقد عجزت عنه الجيوش الخضارم

ويطلب عند الناس ما عند نفسه وذلك مالا تدَّعيه الضراغم

فهو مبالغة في وصف علو همته وشجاعته لدرجة لا تتحملها الجيوش وتعجز عنها الأسود.

وكقوله:

تجاوزت مقدار الشجاعة والنهى إلى قول قوم أنت بالغيب عالم

فهي مبالغة في شجاعته ، وتطرق إلى قول لا يليق بمسلم ، إذ الغيب لا يعلمه إلا الله.

ولابن جني مأخذ آخر على هذا البيت ، حيث يرى فيه تنافر الآخر للأول ، يقول في تعليقاته عليه: "في آخره بعض التنافر لأوله ، لأن

الشجاعة لا تذكر مع علم الغيب ، ولولا أنه ذكر العقل لكان أشد تبايناً، لأن العاقل عارف بأعقاب الأمور ، ولو كان موضع الشجاعة الفطانة لكان أليق بعلم الغيب إلا أنه في ذكر الحرب وكانت الشجاعة من ألفاظ وصفها ، ويجوز أن يكون ذكر الشجاعة مع علم الغيب ؛ لأنه كان قد عرف ما يصير إليه فشجع و لم يحذر الموت[1] ".

ونحن نرى أنها مبالغة كما ذكرنا.

ومن هذه المآخذ ، الضعف التعبيري ، والعدول من الأسلوب الأمثل إلى ما دون ذلك ، في قوله:

ولست مليكاً هازماً لنظيره ... ولكنك التوحيد للشرك هازم

تشرف عدنان به لا ربيعة ... وتفتخر الدنيا به لا العواصم

فإنه عدل عن الخطاب إلى الغيبة في البيت الثاني ، ولو استمر في الخطاب لكان الأسلوب أجود وأمثل ؛ لاستمرار المخاطبة التي تحمل الحضور والمواجهة ، ولذا قال العكبري: "ولو بدل الهاء "كاف" لكان أجود حتى يكون مخاطباً[2] ".

1 - شرح ديوان المتنبي ٤/١٠٣ – هامش (١).

2 - شرح ديوان المتنبي ٤/١٠٧ – هامش (١).

نظرة تفصيلية في القصيدتين:

وبعد أن أجملنا القول في القصيدتين يحسن بنا أن نفصّل القول في مواطن الحسن والجمال ، وأن نوازن بينهما في الأمور المشتركة ، لنرى عبقرية الشعراء ، وما رسمته في ساحات القتال من صور فنية خالدة.

البناء الفني:

جاءت قصيدة أبي تمام في واحد وسبعين بيتاً ، واشتلمت على عدة أفكار ، نجملها فيما يأتي:-

- مطلع القصيدة ، وهو عبارة عن موازنة بين صدق العمل بالسيف ، وزيف القول والاعتقاد في الدجل ، وذلك من ١ — ١٠.
- وصف الفتح وصداه في الأمة الإسلامية ، من ١١ — ١٥.
- قوة المدينة ومنعتها ، من ١٦ — ١٩.
- هول الفاجعة ، من ٢٠ — ٢٢.
- صورة المدينة بعدما دمّرها المعتصم ، ٢٣ — ٣٤.
- بعض الحكم ، ٣٥ — ٣٦.
- مديح المعتصم بالله والإشادة بقوته ، ٣٧ — ٤٩.
- السخرية من قائد الروم ، ٥٠ — ٥٨.

- قوات العدو والنيل منها ، ٥٩ — ٦٦.
- خاتمة القصيدة ، وهي عبارة عن خطاب المعتصم والفخر بإنجازه العظيم الذي حققه للأمة ، ٦٧ — ٧١.

وأما قصيدة المتنبي فجاءت في ستة وأربعين بيتاً ، وأفكارها كالتالي:
- مطلع القصيدة ، وهو عبارة عن مقدمة حكمية تبين مقادير الناس، وذلك من ١ — ٢.
- اهتمام سيف الدولة بجيشه ، ٣ — ٦.
- وصف القلعة وما حلّ بها ، ٧ — ١٥.
- وصف جيش الأعداء ، ١٦ — ١٩.
- صعوبة الموقف ، ٢٠ — ٢١.
- مديح سيف الدولة ، ووصفه بالشجاعة والثبات في ميدان القتال، وذلك من ٢٢ — ٣٢.
- السخرية من قائد الروم ، ٣٣ — ٣٨.
- عودة إلى مديح سيف الدولة وشكر نعمه وعطاياه ، ٣٩ — ٤٣.
- خاتمة القصيدة ، وهي عبارة عن خطاب سيف الدولة والفخر بإنجازه العظيم للأمة ، ٤٤ — ٤٦.

وبالموازنة بين القصيدتين ، نجد تفوق أبي تمام من حيث طول النفس، ومن حيث جودة المطلع ، وحسن التخلص ، ونجد تفوق المتنبي في وصف المعركة ووصف قائده سيف الدولة. وسنقف وقفات تأمل عند

هذه اللمحات التي اشترك فيها الشاعران ، كما سنعرج على اللفتات التي انفرد كل واحد بها.

فأما طول نفس أبي تمام فواضح في طول القصيدة التي قاربت من ضِعْف قصيدة المتنبي ، ولا يعني هذا أننا نحفل بالكم دون الكيف ، وإنما قلنا ذلك لأن القصيدة بتمامها تدخل في شعر أبي تمام الجيد ، صياغةً ، وتصويراً ، وموسيقى.

وتقصير المتنبي في هذا الجانب ، حرم قصيدته من بعض الأفكار التي تناولها أبو تمام ، كوصف الفتح وصداه في الأمة ، وقوة المدينة قبل الفتح ومنعتها ، وهول الفاجعة — وهذه الأفكار أغنت قصيدة أبي تمام ، وجعلتها وثيقة تاريخية شاهدة على عظمة الفتح ، وقوة المعتصم ، وحاجة المسلمين لمثله في كل زمان ومكان !.

وقد استطاع المتنبي أن يعوض هذا القصور في كثير من شعره ، فهو "وإن لم يكن يطيل قصائده ، فإنه كان يطيل أفكاره طولاً من نوع آخر ، هو هذه المبالغة التي تستقر دائماً في صياغة شعره وتستوعب مجهوداً واسعاً في التفكير والتصوير[١] ". وهذا ما فعله المتنبي في هذه الميمية ، فإنه أطال بعض أفكاره ، كوصف الجيش ، ووصف المعركة ، وصفاً ينم عن روح محارب بكلماته وأدواته الفنية.

1 - الفن ومذاهبه في الشعر العربي صـ٣٢٤.

وأما مطلع أبي تمام فكان أجود وأشمل من مطلع المتنبي ، ولا يخفى اهتمام النقاد بالمطالع ، واشتراطهم "محاشاتها من كل ما يكره من جهتي المسموعات والمفهومات ؛ لأنها أول ما يقرع السمع. فهي رائد ما بعدها إلى القلب. فإذا قبلتها النفس تحركت لقبول ما بعدها ، وإن لم تقبلها كانت خليقة أن تنقبض عما بعدها[1] ".

ووضع النقاد لها أصولاً وسمات ، وأهابوا بالشعراء الالتزام بها ، وهي "أن تكون العبارة حسنة جزلة ، وأن يكون المعنى شريفاً تاماً ، وأن تكون الدلالة على المعنى واضحة ، وأن تكون الألفاظ الواقعة فيها لاسيما الأولى والواقعة في مقطع المصراع مستحسنة غير كريهة من جهة مسموعها ومفهومها.

فإن النفس تكون متطلعة لما يستفتح لها الكلام به. فهي تنبسط لاستقبالها الحسن أولاً ، وتنقبض لاستقبالها القبيح أولاً أيضاً [2]".

وقد أبدع أبو تمام في استهلال قصيدته هذا الاستهلال الرائع الذي تنبسط له النفس أيما انبساط! وهل هناك انبساط أحسن من قطع الباطل والدجل بسيف الحق والعمل؟!

---

1 - منهاج البلغاء وسراج الأدباء صـ٢٨٦.

2 - المصدر نفسه صـ٢٨٢.

السيف أصدق أنباءً من الكتب في حده الحد بين الجد واللعب

بيض الصفائح لا سود الصحائف في متونهن جلاء الشك والريب

والعلم في شهب الأرماح لامعة بين الخميسين لا في السبعة الشهب

ويستمر أبو تمام على هذا المنوال في السخرية من الدجالين وعلومهم الكاذبة ؛ ليرفع بذلك راية الجد والعمل بالسيف والنفس والجهاد في عشرة أبيات كاملة فتطرب النفس وتهتز فرحاً بهذا النصر الذي أُعد له عدته.

وقد مدح النقاد هذا المطلع ، ووصفوه بالجودة والحسن ، فقال عنه البديعي: "ولأبي تمام ابتداءات غريبة : منها لما جاء المعتصم عمورية ... مدحه أبو تمام بقصيدة عديمة النظر ، وبنى مطلعها على هذا المعنى فقال: السيف أصدق ، والعلم في شهب ... ، أين الرواية ... ، تخرصاً وأحاديثاً ... ، وهذا من أحسن ما يأتي في هذا الباب[1] ".

وقصر المتنبي في مطلعه القصير الذي جاء حكمة عامة لا تخص سيف الدولة ولا تشير إلى عمله العظيم ، قال:

على قدر أهل العزم تأتي العزائم وتأتي على قدر الكرام المكارم

وتعظم في عين الصغير صغارها وتصغر في عين العظيم العظائم

1 - الصبح المنبي صـ٣٩٣ ، ٣٩٤.

ولع بالحكمة ، وتلاعب بالألفاظ والبديع ، وإجمال في تصوير السبب الذي من أجله قامت المعركة. صحيح أن أبا تمام لعب في المطلع بألفاظه وبديعه الذي اشتهر به ولكنه زاد المعنى روعة ، وأضفى على الصورة بريقاً، فالألفاظ (حدّه ، الحد ، الجد) جناس رائع ، وطباقة بين (الجد واللعب) ومقابلته بين (بيض الصفائح ، سود الصحائف) خدم المعنى وجمَّل المطلع.

و لم يصنع أبو تمام في شعره هذا الصنيع من أجل التعمية وركوب فن البديع – كما يتهمه البعض – وإنما كانت ألفاظه "موسيقية ذوات جرس. وقد سماه علماء البلاغة العربية بالجناس اللفظي. وقد مزج أبو تمام جرس السلاح بجرس الكلام في قصائده الحماسية فجمع بين اللحنين وألّف بين هذه الموسيقى. فشعره الحربي هسيس سلاح ، وصلصلة كلام ، ووسوسة حروف مؤتلفة اللحون كما في الموسيقى من ائتلاف التناغيم[1] ".

وقد أخذ النقاد على المتنبي كثيراً من المآخذ ، ومنها "قبح المطالع وحقّه الحسن والعذوبة لفظاً ، والبراعة والجودة معنى ؛ لأنه أول ما يقرع الأذن ويصافح الذهن[2] ".

---

1 - شعر الحرب في أدب العرب – د. زكي المحاسني صـ٢٤٨.

2 - يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر ، للثعالبي ١٨١/١ – شرح وتحقيق د. مفيد محمد قميحة – دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان – الطبعة الثانية ١٤٠٣هـ (١٩٨٣م).

ولا يندرج هذا المطلع تحت قبح المطالع التي تحدث عنها نقاد المتنبي، وإنما لم يرق إلى عذوبة مطلع أبي تمام وبراعته.

وأما حسن التخلص ، فتلك ميزة أخرى تفوق بها أبو تمـــام علـــى المتنبي ، فكان يحسن التخلص من غرض إلى غرض ، ويدخل من فكـــرة إلـــى فكرة بتلطف وترتيب دقيق دون أن يحس المتلقي بفجوة بعد هـــذا الانتقال ، خذ مثلاً نهاية المطلع:

لو بيّنَتْ قط أمراً قبل موقعـــه   لم تُخف ما حل بالأوثان والصلب

ثم يلتحم المعنى بالدخول في وصف هذا الفتح الجليل ، فيقول:

فتح الفتوح تعالى أن يحيط بـــه   نظم من الشعر أو نثر من الخطب

وخذ مثلاً آخر ، وهو نهاية مديح المعتصم بقوله:

حتى تركتَ عمود الشرك منعفراً   ولم تعرج على الأوتاد والطنـــب

ثم يدخل في موازنة بين هذا البطل ، وذاك المنهزم المنكسر ، فيقول:

لما رأى الحرب رأي العين "توفلس"   والحرب مشتقة المعنى من الحرب

ولم يسئ المتنبي في كل تخلصاته ، وإنما أجاد في بعضها ، وأساء في الأخرى ، فمن إجادته ، قوله يصف صعوبة الموقف:

تقطع مالا يقطع الدرع والقـــنا   وفرَّ من الأبطـــال من لا يصـــادم

ثم يمزج هذه الصعوبة بشجاعة سيف الدولة فيقول:

وقفت وما في الموت شك لواقف كأنك في جفن الردى وهو نائم

ومن سوء تخلصه ، تلك المقدمة التي أجملها في حكمته ، ثم هجم على وصف جيش سيف الدولة ، قال:

وتعظم في عين الصغير صغارها وتصغر في عين العظيم العظائم

ثم قال:

يكلف سيف الدولة الجيش همه وقد عجزت عنه الجيوش الخضارم

وقد أرجع الأستاذ / محمود شاكر هذا الأمر في شعر المتنبي إلى "دقة إحساس هذا الرجل ، وسرعة تأثره ، وظهور هذا التأثر في شعره إذا كربه أمر يغمه أو يثيره أو يهيج كبرياءه ، وما يكون من جراء ذلك في شعره من الانتقال من معنى إلى معنى غير عابئ بحسن التخلص ومقتضى الحال[1] ".

وتفوق المتنبي على أبي تمام – وزاد عليه – في وصف المعركة ، حيث وصفها وصفاً دقيقاً بالغاً ، وصْف مجرب ومحارب محنك ، رأى بعينيه كثيراً من المعارك التي خاضها سيف الدولة ، فوصف الطعان والنزال، والكرّ والفرّ في عبقرية نادرة ، قال:

1 - المتنبي – محمود شاكر صـ٢١٢.

ضممت جناحيهم على القلب ضمة	تمـوت الخـوافي تحتـها والقـوادم
بضرب أتى الهامات والنصر غائـب	وصار إلى اللبـات والنـصر قـادم
نثـرهم فـوق الأحيـدب كلـه	كما نثرت فوق العـروس الـدراهم
تدوس بك الخيل الوكور على الذرى	وقد كثرت حول الوكـور المطـاعم
تظن فـراخ الفـتح أنـك زرهـا	بأماهـا وهـي العتـاق الـصلادم
إذا زلقـت مـشيتها ببطونهـا	كما تتمـشى في الـصعيد الأراقـم

ويعلق أحد الباحثين على هذا الوصف ، فيقول: "إن تصوير المتنبي للمعركة هكذا لا نحس أمامه إلا أنه ينقلنا بالفعل إلى ميدان القتال وليس بالتصور ، ويضع أبصارنا على الرماح مشتبكة ، والسيوف متعانقة ، والرقاب متكسرة ، والرؤوس دامية ، والجثث متناثرة ، في جلبة صرير الحديد وصهيل الخيول وطراد الفرسان ، ويركز المتنبي على الخيل مرة أخرى فيصف براعتها وبسالتها وحسن تدريبها وأصالتها حين تتسلق القمم حيث فراخ النسور وتتزلق نازلة منساحة على الصخر[1] ".

وهذا الجانب – أعني جانب وصف المعارك والخيول – برع فيه المتنبي ، وقصر فيه أبو تمام ، فلم يعطنا صورة تفصيلية عما دار في الميدان كما صنع المتنبي. وهذا ما جعل بعض الدارسين يفرق بين القصيدتين ،

1 - سيف الدولة الحمداني – د. مصطفى الشكعة صـ٢١٤.

ويرفع قدر المتنبي لهذا السبب ، قال: "وقد تصل روعة قصيدة أبي تمام إلى روعة قصيدة المتنبي ، فالعدو واحد وهو الروم والعاقبة واحدة وهو النصر على أعداء الإسلام ، والفن مختلف إذ فن أبي الطيب منتزع من واقع المعركة بعكس أبي تمام الذي كان يصف من بُعد جو المعارك وهذا لا يمنع من إجادته ودقة تصويره للمعارك الإسلامية الخالدة. فالمتنبي ثائر يحلم بالظفر دوماً وبالنصر في غالب الأوصاف لأنه ابن الطعان ، أما أبو تمام فقد كان يغلب عليه الوصف أكثر من اقتحام المعارك[1] ".

والجانب الثاني الذي أجاد فيه المتنبي هو مديح سيف الدولة في المعارك ، وقد تحدثنا عن بعض الأسباب التي دفعته لذلك فيما مضى عند حديثنا عن شخصية سيف الدولة ، ونضيف هنا ما رآه الأستاذ / محمود شاكر من الأسباب ، وهو: "ما كان عليه سيف الدولة من الشعر والنقد والبصر ، فكان ذلك من أكبر العوامل في شعر أبي الطيب فإنه كان يعرف يقيناً بصر صاحبه سيف الدولة بالأدب والشعر ، فحمله ذلك على الإجادة والتبصر ، وتغليب المعاني واختيارها ، واصطفاء أثوابها من الألفاظ واحتبائها ، وكان ذلك من أبي الطيب لما في نفسه من الكبرياء والعظمة ، إذ لو لم يفعل ذلك لعلا عليه في نظر سيف الدولة رجل غيره

1 - الحرب في شعر المتنبي – د. محمود حسن عبد ربه جـ٢ صـ٣٧٣ ، ٣٧٤ – دار الشروق – جدة – السعودية – الطبعة الأولى ١٣٩٩هـ (١٩٧٩م).

من الشعراء أو لسّواه به ، وصاحبنا هذا لا يرضى بأن يسبقه على سيف الدولة غيره من الشعراء ، فهل يرضى بالمساواة؟ [1] ".

وهذا كلام صحيح ، وحكم صائب ، فسيف الدولة ناقد بصير ، بخلاف المعتصم الأمي الذي لا يعرف من الشعر والنقد ما يجعله ينتقد صاحبه أو يلومه على التقصير. وقد اتضح هذا الفرق في القصيدتين ، فبينما رضي المعتصم مستمتعاً بالمديح ، رأينا نقد سيف الدولة ونقاشه للمتنبي في بعض المعاني التي مدحه بها روي أنه "لما بلغ المتنبي إلى قوله:

وقفت وما في الموت شك لواقف   كأنك في جفن الردى وهو نائم

تمر بك الأبطال كلمى هزيمة   ووجهك وضاح وثغرك باسم[2]

قال سيف الدولة: قد انتقدتك ، ينبغي أن تقول:

وقفت وما في الموت شك لواقف   ووجهك وضاح وثغرك باسم

تمر بك الأبطال كلمى هزيمة   كأنك في جفن الردى وهو نائم

فقال المتنبي: لما ذكرتُ الموت في صدر البيت الأول أتبعته بذكر الردى في آخره ليكون أحسن تلاؤماً ، ولما كان وجه الجريح المنهزم

---

1 - المتنبي – محمود شاكر صـ٢١٤.

2 - يقول محققو الصبح المنبي: إن هذا البيت من قول مسلم:

يفتر عند اقتراب الحرب مبتسماً   إذا تغير وجه الفارس البطل

وقلتُ: ولكن المتنبي زاد عليه ، وبرع في التصوير فكان جديراً بالأخذ !.

عبوساً ، وعينه باكيةً ، قلتُ: (ووجهك وضاح وثغرك باسم) ؛ لأجمع بين الأضداد في المعنى. فأعجب سيف الدولة كلامه[1] ".

وسواء أرضي سيف الدولة بهذا التوجيه أم لم يرض ، فهو قد انتقده وناقشه عن علم وبصر بالشعر والنقد.

وقد دافع الواحدي عن وجهة نظر المتنبي ، ورأى الجمال فيما ذهب إليه من ترتيب بيتيه ومجانسته بين الصدر والعجز ، قال: "ولا تطبيق بين الصدر والعجز أحسن من بيتي المتنبي ، لأن قوله (كأنك في جفن الردى وهو نائم) هو معنى قوله (وقفت وما في الموت شك لواقف) فلا معدل لهذا العجز عن هذا الصدر ، لأن النائم إذا أطبق جفنه أحاط بما تحته ، فكأن الموت قد أظله من كل مكان كما يحدق الجفن بما يتضمنه من جميع جهاته ، فهذا هو حقيقة الموت. وقوله "تمر بك الأبطال" هو النهاية في التطابق للمكان الذي تكلم فيه الأبطال فتكلح وتعبس. وقوله "وجهك وضاح" لاحتقار الأمر العظيم [2] ".

كما دافع حازم القرطاجني عن وجهة نظر المتنبي فقال: "وبقي أن نبين وجه الحجة في قول أبي الطيب. فنقول: إن أبا الطيب أراد أن يقرن بين أن الردى لا نجاة منه لواقف وبين أن الممدوح وقف ونجا منه ، وبين

1 - الصبح المنبي صـ٨٤ ، ٨٥.
2 - شرح ديوان المتنبي ١٠٢/٤.

أن الأبطال ريعت وانهزمت وأن سيف الدولة لم يرع ولم ينهزم ، وابتسام الثغر وانبلاج الوجه مما يدل على عدم الروع. وإنما قال: (كأنك في جفن الردى وهو نائم) لأنه جعل الردى في هذا الموضع بصورة الناظر المبصر الذي لا يغيب عنه شيء ولا يخفى عليه مقتل ، ولأن السبل إلى المُهَج واضحة له. فلما نجا الممدوح تعجب في سلامته منه وخفائه عنه مع كونه بالموضع الذي يبصر فيه. فقدَّر سبباً لخفائه عنه النوم الشاغل للأجفان عن رؤية ما دنا منها[1] ".

وينتقد سيف الدولة المتنبي ويوجهه مرة أخرى ، فيقبل المتنبي في القصيدة ذاتها ، قال أبو الطيب: "ما ردّ عليّ أحد شيئاً فقبلته إلا سيف الدولة فإني أنشدته "ومن جيف القتلى" ، فقال لي: قل: ومن جثث القتلى ، فقبلت وقلت كما قال لي[2] ".

ونلاحظ هنا عدم مناقشة المتنبي لسيف الدولة كما حدث في الموقف السابق ، ولعل المتنبي رأى كما رأينا وجاهة هذه اللفظة "جثث" وبشاعة "جيف" فأنس بها.

وأما الحديث عن المديح نفسه فسنرجئه لموطن آخر عند حديثنا عن الأمور المشتركة في القصيدتين. وهناك جوانب أجاد فيها الشاعران ووقفا

---

1 - منهاج البلغاء وسراج الأدباء صـ١٦١.

2 - شرح ديوان المتنبي ٩٧/٤.

فيها فرسي رهان ، منها: الخاتمة ، وهي لا تقل شأناً عن المطلع ، ولـــذا اهتم النقاد بها ، ووجهوا الشعراء للإجادة فيها ، ورسمـــوا لهـــم طريـــق الجـــودة ، وهو أن "يتحرز فيها من قطع الكلام على لفظ كريـــــه أو معنى منفِّر للنفس عما قصدت إمالتها إليه أو مميل لها إلى مـــا قـــصدت تنفرها عنه .. وإنما وجب الاعتناء بهذا الموضع لأنـــه منقطـــع الكـــلام وخاتمته. فالإساءة فيه مُعفيّة على كثير من تأثير الإحسان المتقدم عليـــه في النفس. ولا شيء أقبح من كدر بعد صفو[1] ".

ومن أحسن الخواتيم ما كان بالدعاء ، أو الحكمة ، أو ذكر شـــيء تحن إليه النفس ، وتتطلع إليه الروح. فأما ختام أبي تمام فجاء على الوجه الأحسن في الانتصار والظفر ، حيث ختم قصيدته بتخليد هذه الواقعة في نفوس المسلمين ، وربطها بالذكريات الإسلامية المجيدة ، وهي غزوة بدر، ثم عقب على ذلك بأثر تلك الواقعة في نفوس الفريقين ، قال:

فبين أيامك اللاتي نُصـــرت بهـــا وبين أيام بدر أقـــرب النســـــب
أبقت بني الصفر المراض كاسمهم صفر الوجوه وجّلت أوجه العرب

وأما ختام المتنبي فكان له الوقع العظيم أيضاً ، حيث ختم قـــصيدته بتخليد سيف الدولة في تاريخ الحروب الظافرة ، وشفع ذلـــك بـــذكر السبب ، وهو الدفاع عن العقيدة ، والانتصار لدين الله ؛ لذا كان مؤيداً من ربه ، موفقاً في حروبه ، قال:

---

1 - منهاج البلغاء صـــ٢٨٥.

ألا أيها السيف الذي ليس مغمداً ولا فيه مرتاب ولا منه عاصم
هنيئاً لضرب الهام والمجد والعلى وراجيك والإسلام أنك سالم
ولْم لا يقي الرحمن حديك ما وقى وتفليقه هام العلا بك دائم

ومن الجوانب المشتركة ، براعة الموسيقى ، وروعة القافية في القصيدتين ، فقد اختار الشاعران بحرين طويلين يحسن فيها عرض المعارك، والتغني بالبطولات ، فاختار أبو تمام بحر البسيط ، واختار المتنبي بحر الطويل ، وكذلك وُفّقا في اختيار القافية ، فالباء المكسورة لها رنين جذاب والميم المضمومة لها وقع عظيم في التهويل والتخويف من صدى المعارك.

ويزيد أبو تمام على ما ذكرنا بأنه "ملك ناصية الألفاظ الموسيقية ، ويدل على بلوغه قمة الفن الموسيقي في كلام الشعر مثال واحد من تآلف السينات في قوله:

بسنة السيف والخطي من دمه لا سنة الدين والإسلام مختضب
إن الأسود أسود الغاب همتها يوم الكريهة في المسلوب لا السلب[1]

وهذا شاهد صدق على تملكه ناصية الألفاظ الموسيقية ، بتكرار الحرف الواحد في البيت أو البيتين فيحدث نغماً عجيباً ، ويضفي على

1 - شعر الحرب في أدب العرب – د. زكي المحاسني صـ٢٤٨.

الموسيقى وقعاً ورنيناً. ويمكن أن نلمح في هذه القصيدة تآلف حـــروف أخرى غير السينات ، مثل الراءات في قوله:

ما ربع ميـــة معمـــوراً يطيـــف بـــه	غيلان أبهى ربىً من ربعهـــا الخـــرب
حتى تركت عمود الـــشرك منعفـــرا	ولم تعرج علـــى الأوتـــاد والطنـــب
لما رأى الحرب رأي العـــين تـــوفلس	والحرب مشتقة المعنى مـــن الحـــرب
غدا يـــصرّف بـــالأموال جريتـــها	فعـــزه البحـــر ذو التيـــار والحـــدب

ومثل الصادات في قوله:

بصرت بالراحة الكبرى فلـــم ترهـــا	تنال إلا علـــى جـــسر مـــن التعـــب
إن كان بين صروف الدهر من رحم	موصولة أو ذمـــام غـــير مقتـــضب
فبين أيامـــك الـــلاتي نـــصرت بهـــا	وبـــين أيـــام بـــدر أقـــرب النـــسب
أبقت بني الأصفر الممراض كـــاسمهم	صفر الوجوه وجّلت أوجـــه العـــرب

الجوانب المشتركة في القصيدتين:

ولنقف الآن وقفة تأمل عند الجوانب المشتركة بين الـــشاعرين في هاتين القصيدتين ، لنوازن بينهما موازنة نقدية ، ولنحكم على كل منهما من خلال هذا المشترك الذي عالجاه. وأبرز تلك الجوانب تتمثل في أربـــع نقاط هي:

١ – صورة البلد المفتوح ، وما أحدثه فيه الفتح.

٢ – صورة القائد البطل المنتصر وسماته.

٣ – فرار الآخر وانكساره – على الرغم من قوته –.

٤ – إنصـــاف العـــدو.

وصف أبو تمام "عمورية" قبل الفتح وبعده ، وكأنه يعقد موازنة بين عهدين مختلفين ، فقال فيها قبل الفتح:

وبرزة الوجه قد أعيـــت رياضـــتها كسرى وصدّت صدوداً عن أبي كرب
بكر فما افترعتـــها كـــف حادثـــة ولا ترقـــت إليهـــا همّـــة النـــوب
من عهد إسكندر أو قبل ذلك قـــد شابت نواصي الليالي وهي لم تـــشب

صورة لمدينة عتية أبيّة ، موغلة في العراقة مع قدم الزمن ، لم تتطرق إليها يد غاصبة ، و لم يفتح مغالقها ملك محنك. ولكنها لم تتـــأب علـــى المعتصم ، ففتحها ، وحولها إلى وجه آخر من الذل والهـــوان ، وحـــوّل حماها جماجم ساكنة ، وصبغها بنيران الهول والفزع ، وكساها ثوباً مـــن الدخان واللهيب ، قال:

كم بين حيطانها من فـــارس بطـــل قاني الـــذوائب مـــن آني دم ســـرب
بسنة السيف والخطـــي مـــن دمـــه لا سنة الـــدين والإســـلام مختـــضب
لقد تركـــت أمـــير المـــؤمنين بهـــا للنار يوماً ذليل الـــصخر والخـــشب

غادرت فيها بهيم الليل وهو ضحى يشله وسطها صبح من اللهب
حتى كأن جلابيب الدجى رغبت عن لونها وكأن الشمس لم تغب
ضوء من النار والظلماء عاكفة وظلمة من دخان في ضحى شحب
فالشمس طالعة من ذا وقد أفلت والشمس واجبة من ذا ولم تجب

وأما قلعة المتنبي ، فيوجز في وصفها ، وتتداخل الصور عنده قبل الفتح وبعده في مزج سريع دون تفصيل أو موازنة ، يقول عن الحدث الحمراء:

هل الحدث الحمراء تعرف لونها وتعلم أي الساقيين الغمائم
سقتها الغمام الغر قبل نزوله فلما دنا منها سقتها الجماجم
بناها فأعلى والقنا تقرع القنا وموج المنايا حولها متلاطم
وكان بها مثل الجنون فأصبحت ومن جثث القتلى عليها تمائم
طريدة دهر ساقها فرددتها على الدين بالخطي والدهر راغم

صور متلاحقة ، وتداخل عجيب في حالي المدينة ، وتصوير بديع للمكان وما حل به مع رجوع سريع لسابق عهده ، وكأني بالمتنبي مخرج بارع يسرد الأحداث ثم يعود سريعاً للوراء كما يفعل المخرج بالعود بالذاكرة للوراء في كل مشهد يعرضه.

وبالموازنة نحكم بتفوق أبي تمام على المتنبي في هذا الجانب ؛ فأبو تمام فصّل تفصيلاً دقيقاً ، وأطلعنا على زاويتين لعمورية ، أما المتنبي فأوجز ، و لم يعطنا الصورة الكاملة للبلد قبل الفتح وما حلّ بها من خراب ودمـــار بعد الفتح.

الخليفة الممدوح في القصيدتين:

نال كل خليفة إعجاب صاحبه بما قدمه للأمة العربية والإســـلامية من خدمة للدين والوطن ، فكان جديراً بالمديح ، والإشـــادة بفـــضله. صاحب أبو تمام الخليفة المعتصم في هذه الحرب الفاصلة ، ورأى إقـــدام المعتصم وجرأته ، فأفاض في مديحه قائلاً:

تـــدبير معتـــصم بـــالله منـــتقم	**لله مرتقـــــــب في الله مرتغـــــــب**
ومطعـــم النـــصر لم تكهـــم أســـنته	**يوماً ولا حجبت عـــن روح محتجـــب**
لم يغـــز قومـــاً ولم ينهـــد إلى بلـــد	**إلا تقدمـــه جـــيش مـــن الرعـــب**
لو لم يقد جحفلاً يوم الـــوغى لغـــدا	**من نفسه وحدها في جحفـــل لجـــب**
رمـــى بـــك الله برجيهـــا فهـــدمها	**ولو رمـــى بـــك غـــير الله لم تـــصب**
لبيت صوتاً زبطريـــاً هرقـــت لـــه	**كأس الكرى ورضاب الخرد العـــرب**
عداك حر الثغور المستـــضامة عـــن	**برد الثغور وعن سلـــسالها الحَـــصِب**
أجبتـــه معلنـــاً بالـــسيف منـــصلتا	**ولو أجبت بغـــير الـــسيف لم تجـــب**

حتى تركت عمود الشرك منعفرا ... ولم تعرّج على الأوتاد والطنب

خليفة الله جازى الله سعيك عن ... جرثومة الدين والإسلام والحسب

بصرت بالراحة الكبرى فلم ترها ... تنال إلا على جسر من التعب

تلك صورة القائد البطل "المعتصم بالله" ، خليفة المسلمين ، وحامي ثغور الدولة الإسلامية ، ومدوخ العدو الرومي الغاشم. وقد أسبغ أبو تمام على "المعتصم" كل صفات الحماسة ، فجعله بطلاً مغواراً ، يدافع من أجل العقيدة ، ولذا فهو "مطعم النصر" ينصر بالرعب قبل الغزو – وفي هذا إشارة إلى حديث الرسول – صلى الله عليه وسلم – "ونصرت بالرعب" وهو جيش بذاته ، والله مؤيده وناصره ويرمي به في وجوه الأعداء .. "وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى" ، ويربط أبو تمام السبب بالمسبب فيعرج على سبب الواقعة وهو صوت المرأة التي نادت: وامعتصماه! ، وهذا الخليفة يفضل الجهاد على كل متع الحياة ، وقد نصره الله نصراً مؤزراً فهدم به عمود الشرك ، فهو يستحق بذلك جزاء الله وعونه.

ونحن نلاحظ في هذا المديح ابتعاد أبي تمام عن ذكر الصفات الحسية، وتركيزه على الصفات المعنوية (النفسية) التي دعا إليها النقاد ، كما نلاحظ دقة اختياره للصفات اللائقة بالقائد الحربي الذي يدبر أمر الجيوش ويقودها بنفسه ، ولم ينس أبو تمام الاستعانة بالصفات الدينية المستمدة من روح الشرع الحنيف ، فجاء مديحه آية في الروعة والكمال يتمناه كل قائد حكيم مظفر.

ولم يكن أبو تمام مبالغاً في هذا المديح الصادق ، وإنما وصف الرجل بما يستحق من شجاعة ، فقد قسم المعتصم جيشه "ثلاثة أقسام قاد هو قلب الجيش مع الميسرة والميمنة اللتين قادهما بطلان آخران ثم انقضوا على جيش الروم ، وبذلك انتقم المعتصم من الروم بما فعلوه في زبطرة وملطية. وكانت إناخته على عمورية في ٦ رمضان سنة ٢٢٣ وقفل عنها بعد خمسة وخمسين يوماً [1] ".

ويمدح أبو الطيب المتنبي قائده المظفر "سيف الدولة" ، فيقول:

يكلف سيف الدولة الجيش همه ... وقد عجزت عنه الجيوش الخضارم

ويطلب عند الناس ما عند نفسه ... وذلك ما لا تدعيه الضراغم

يفدي أتم الطير عمراً سلاحه ... نسور الملا أحداثها والقشاعم

وما ضرها خلق بغير مخالب ... وقد خلقت أسيافه والقوائم

إذا كان ما تنويه فعلاً مضارعاً ... مضى قبل أن تلقى عليه الجوازم

ومن طلب الفتح الجليل فإنما ... مفاتيحه البيض الخفاف الصوارم

ثم يقول:

ولست مليكاً هازماً لنظيره ... ولكنك التوحيد للشرك هازم

تشرف عدنان به لا ربيعة ... وتفتخر الدنيا به لا العواصم

---

1 - الدولة العباسية – الشيخ محمد الخضري صـ٢١٢.

ألا أيها السيف الذي لـــيس مغمـــداً	**ولا فيـــه مرتـــاب ولا منـــه عاصـــم**
هنيئاً لضرب الهام والمجـــد والعلـــى	**وراجيـــك والإســـلام أنـــك ســـالم**
ولم لا يقي الرحمن حديك مـــا وقـــى	**وتفليقـــه هـــام العـــدا بـــك دائـــم**

فهذا الوصف لا يستحقه غير سيف الدولة ، القائد البطل المغوار ، الذي يرى راحته في ضرب الأعداء ، وطعان الكافرين. و لم يركز المتـــنبي في هذا الوصف إلا على الصفات الحربية بخلاف أبي تمام الذي مازج بين صفات الخليفة الحاكم وصفات القائد العسكري المحارب ، وللمتنبي عذره في ذلك ، فسيف الدولة اشتهر كرجل حرب أكثر منه رجل حكم ، ولا يعني هذا أنه قصر في إحكام قبضته على مملكته (مملكة حلب) وإنما نعـــني بذلك كثرة حروبه مع الروم واشتغاله بالحرب فترة طويلة.

وصفه المتنبي باهتمامه بالجيش وتدريب الأبطال ، والحزم والمضاء في الأمور ، ثم وصفه بأنه قائد التوحيد الذي هزم الشرك ؛ لذا فهـــو فخـــر الدنيا كلها ورمز الإسلام الذي يرمي به الله في وجوه أعدائه. و لم يكثـــر المتنبي من ذكر الصفات الإسلامية كما فعل أبو تمام قبله ، كمـــا أنـــه لم يربط التاريخ ببعضه ، حيث لم يذكر السبب الذي مـــن أجلـــه قامـــت المعركة كما حددها أبو تمام قبله ؛ ولذا نحكم بتفوق أبي تمام على المتـــنبي في هذا الجانب وهو جانب مديح الخليفة القائد المنتصر.

وهناك لمحة فنية ساقها المتنبي في المديح ، وهي ادعاء أن الطير من جملة جيش سيف الدولة ، وهذا الأمر معروف في التاريخ الشعري ، فقد أكثر منه الشعراء قبل المتنبي ، ورأى النقاد أن الشعراء يسيرون فيه في فلك واحد دون تفاضل ولكنهم حكموا ببراعة المتنبي في هذا الجانب ، فإنه "لما انتهى إليه الأمر خرج إلى غير المقصد الذي قصدوه ، فأغرب وأبدع ، وحاز الإحسان بجملته ، فصار كأنه المبتدع لهذا المعنى دون غيره. فمما قال فيه:

يفدي أتم الطير عمرا سلاحه نسور الملا أحداثها والقشاعم
وما ضرها خلق بغير مخالب وقد خلقت أسيافه والقوائم[1]

ولهذا عدَّ بعد النقاد مدائح المتنبي في سيف الدولة "في الذروة لا من شعره وحده ، بل من الشعر العربي عامة ، فقد صور فيها وقائعه وحروبه تصويراً تشيع فيه البهجة بالنصر والاعتزاز بالعرب والعروبة ، ونحس كأن نفسه قد لانت ، وفرق بعيد بين هذه القصائد وغيرها ، فلم يعد يعنى بالألفاظ الغريبة والمعاني البعيدة ، إنما عني بالموضوع نفسه ، فإذا هو يؤلف ملاحمه التي خلدت اسمه واسم سيف الدولة جميعاً [2] ".

---

1 - الصبح المنبي صـ٧٦.
2 - الفن ومذاهبه في الشعر العربي – د. شوقي ضيف صـ٣٠٦ ، ٣٠٧.

بقي شيء أخير في هذا الجانب وهو اشتراك الشاعرين في بعض المعاني ، لذا رأينا من المفيد أن نوازن بين الشاعرين في هذه المعاني المشتركة ، فمنها قول أبي تمام:

تدبير معتصم بالله منتقم لله مرتقب في الله مرتغب

وقو المتنبي:

ولست مليكا هازما لنظيره ولكنك التوحيد للشرك هازم

فالمعنيان جيدان ، ولكن المتنبي أجود معنى من أبي تمام ؛ لأن أبا تمام جعل صاحبه يعمل من أجل الله ، ولكن المتنبي جعل صاحبه رمز الإسلام، فنصره نصر للإسلام وهزيمة للشرك ، فكان "منه ذلك أول إعلان لوصف الحرب الحمدانية بأنها ملحمة كبرى بين الإسلام كافة والروم كافة. وقد دعا الروم من ذلك اليوم لمثل هذا المعنى فعمموا دعوتهم حتى بلغت أوربا وانتشرت فيها كلها[1] ".

ومنها قول أبي تمام:

رمى بك الله برجيها فهدّمها ولو رمى بك غير الله لم يصب

وقول المتنبي:

و لمْ لا يقي الرحمن حديك ما وقى وتفليقه هام العدا بك دائم

1 - شعر الحرب في أدب العرب – د. زكي المحاسني صـ٢٩٢.

وتفوق أبي تمام هنا واضح ، حيث استمد معناه من القرآن وصاغ عبارته صياغة قوية آسرة.

ومنها قول أبي تمام:

لو لم يقد جحفلاً يوم الوغى لغدا   من نفسه وحدها في جحفل لجب

وقول المتنبي:

تجاوزت مقدار الشجاعة والنهى   إلى قول قوم أنت بالغيب عالم

فالرجلان بطلان شجاعان ، وإنما المعتصم في نظر أبي تمام أكثر شجاعة ، حيث يعدل جيشاً لجباً بأكمله ، بخلاف سيف الدولة الذي ظلت شجاعته مبهمة و لم يفسرها المتنبي كما فسرها أبو تمام.

السخرية من قائد الروم المهزوم:

تحدثنا قبل ذلك عن شجاعة قائدي الروم في عمورية ، وقلعة الحدث ، وما تحليا به من إعداد وتدريب ، ناهيك عن كثرة العدد والعتاد اللذين فاقا قوة المسلمين. ولكن يبقى عامل مهم في المعركة ، وهو الإيمان بالله ، والدفاع من أجل عقيدة ووطن فهما العامل الأكبر في النصر دائماً مهما بلغ عتاد العدو وعدده.

وعلى الرغم من كل هذه الفروق العددية ، إلا أن النصر كان حليف المسلمين في الوقعتين ، وكانت المفارقة العجيبة جداً – وهي النتيجة المرتقبة لما قدمناه – فبدا ثبات قادة المسلمين ، وبدا الرعب على قائدي الروم وكلّلاه بالفرار من ميدان المعركة ؛ فكان ذلك سبباً في سخرية الشاعرين منهما.

سَخِر أبو تمام من "ثيوفيلوس" قائد معركة الروم ، فقال:

لما رأى الحرب رأي العين "تُوفَلِسٌ" والحرب مشتقة المعنى من الحرب
غداً يصرف بالأموال جريتها فعزّه البحر ذو التيار والحدب
هيهات زعزعت الأرض الوقور به عن غزو محتسب لا غزو مكتسب
لم ينفق الذهب المربي بكثرته على الحصى وبه فقر إلى الذهب
إن الأسود أسود الغيل همتها يوم الكريهة في المسلوب لا السلب
ولّى وقد ألجم الخطي منطقه بسكتة تحتها الأحشاء في صخب
أحذى قرابينه صرف الردى ومضى يحتث أنجى مطاياه من الهرب
إن يعد من حرها عدو الظليم فقد أوسعتَ جاحمها من كثرة الحطب
تسعون ألفاً كآساد الشرى نضجت أعمارهم قبل نضج التين والعنب

صورة كاريكاتورية مضحكة ، صور فيها الشاعر الهمام "ثيوفيلوس" قائد الروم العظيم ظليماً أسلم ساقيه للريح تاركاً وراءه جيشاً

جراراً وقواداً كباراً و لم يلو على شيء. وقد أبدع أبو تمام كل الإبداع في رسم هذه الصورة المخزية للروم وقائدها من استخدام وسائل التعبير اللفظية والبديعية والبيانية ، فلوّن صورته بكل ألوان الفن الجمالي الساخر. و لم ينس أبو تمام – على عادته – أن يربط الحدث بالتاريخ ، فذكر محاولة "ثيوفيلوس" الصلح مع قائد المسلمين لما رأى الحرب قاب قوسين ، ولكن هيهات هيهات ! فقد فات الأوان ، واحتشد الجيش الإسلامي الكبير ، تحوطه الرعاية ، ويحثه الإيمان لملاقاة هذا الغاصب الكافر.

صور أبو تمام "توفلس" اختصاراً لاسمه – لاهثاً ومضطرباً يبحث عن النجاة بأي ثمن ، فارّاً من حرب اتسعت رقعتها ، تاركاً وراءه أخلص قواده قرابين للحرب ، كما نجح أبو تمام في تحديد عدد القتلى وهم تسعون ألف جندي من خيرة جنود الروم – يشير إلى ذلك وصفهم بآساد الشرى – وهذا من الإنصاف والحيدة حتى تكون المعركة متكافئة الأطراف ؛ فيكون للنصر قيمة ومعنى.

وصور المتنبي "الدمستق" وهو لقب قائد الروم "برداس فوكاس" فقال:

أفي كل يوم ذا الدمستق مقدم قفاه على الإقدام للوجه لائم
أينكر ريح الليث حتى يذوقه وقد عرفت ريح الليوث البهائم
وقد فجعته بابنه وابن صهره وبالصهر حملات الأمير الغواشم

مضى يشكر الأصحاب في فوته الظُّبى بمـــا شـــغلتها هـــامهم والمعاصـــم
ويفهـــم صـــوت المـــشرفية فـــيهم على أن أصوات الـــسيوف أعـــاجم
يُسَرّ بمـــا أعطـــاك لا عـــن جهالـــة ولكـــنّ مغنومـــاً نجـــا منـــك غـــانم

صورة كاريكاتورية أخرى لقائد جيش كبير ، غير أنها صورة مزرية أكثر إضحاكاً من الصورة السابقة ، حيث استخدم المتنبي مهارته الفنية ، وجمع قواه العبقرية ، وشحذ همته العالية في رسم تلك الصورة الهزليـــة ، فصور لنا قائداً كبيراً — في قومه — لا يعتبر بالتجربة فكثيراً ما يُصفع قفاه ولكنه ينسى ولا يتعظ ، وهو قليل التجربة — رغم تقدمه في القيادة — فلا يعرف أبسط الأشياء ، ولا يميز ريح الليوث التي تميزها البـــهائم! ويمعـــن المتنبي في قسوة التصوير ، فيجعل هذا الهارب يشكر أصحابه لافتـــدائهم إياه برقابهم وذلك بعد فجيعته بابنه وابن صهره ، وأخيراً — وعلى الرغم من كل هذه الخسائر — مضى شاكراً سيف الدولة على ترك عنقـــه دون ضرب ، وهذه النجاة خير غنيمة غنمها الدمستق من حربه.

وجاءت براعة المتنبي في رسم تلك الصورة للعدو الهارب من حبـــه للرجولة وبغضه لمن لا يتمثل تلك الرجولة الكاملة حتى ولو كان عدواً ، وكان المتنبي "إذا رأى ما يخالف الرجولة ويحط منها ، اهتـــزت نفـــسه واشمأزت ، وأبدى ازدراءه واحتقاره ، فهو يحب من عدوه أن يستمسك بعروة الرجولة في اللقاء والهزيمة والنصر ، كما يحب ذلك من نفسه[1] ".

1 - المتنبي — محمود شاكر صـــ١٤٧.

ولا ننسى الإشارة إلى المعاني المتشابهة في هذه الفكرة ، فقول أبي تمام:

ولى وقد ألجم الخطي منطقه ... بسكتة تحتها الأحشاء في صخب
أحذى قرابينه صرف الردى ومضى ... يحتث أنجى مطاياه من الهرب
موكلاً بيفاع الأرض يشرفه ... من خفة الخوف لا من خفة الطرب
إن يعد من حرها عدو الظليم فقد ... أوسعت جاحمها من كثرة الحطب

يشبهه قول المتنبي:

مضى يشكر الأصحاب في فوته الظبى ... بما شغلتها هامهم والمعاصم
ويفهم صوت المشرفية فيهم ... على أن أصوات السيوف أعاجم
يسر بما أعطاك لا عن جهالة ... ولكن مغنوماً نجا منك غانم

فالصورتان متقاربتان في الإضحاك ، وإنما صورة المتنبي أنكى وأشفى ، حيث تصف مهزوماً يفر دون أن يلوي على شي –أي شيء– ثم يجيء ختام الصورة في هذا الشكر الغريب والسرور المفاجئ بالنجاة رغم الخسارة الفادحة.

إنصاف العدو في المعركة:

ومن الجوانب المشتركة إنصاف العدو في المعركة ، ووصفه بالقوة والشجاعة والبطولة والمساواة في الصبر في اللقاء. وهذا الإنصاف للعدو معروف لدى شعراء العربية منذ زمن بعيد ، قال البغدادي: "وللعرب قصائد قد أنصف قائلوها أعداءهم وصدقوا عنهم وعن أنفسهم فيما اصطلوه من حر اللقاء ، وفيما وصفوه من أقوالهم في أمحاض الإخاء قد سموها المنصفات[1] ".

ومن هذه المنصفات قول مهلهل بن ربيعة:

كأنا غدوة وبني أبينا   بجنب عنيزة رحيا مدير

فقد أنصف أعداءه في الحرب حتى قال الطبرسي: ويروى إن أول من أنصف في شعره مهلهل بن ربيعة وذكر البيت[2].

ومن الشعراء المنصفين ، السفاح التغلبي ، وهو من شعراء تغلب المغمورين ، فنجد "في شعره ما يدل على خلق الفرسان الذين يملكون

---

1 - خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب – عبد القادر بن عمر البغدادي ٥١٧/٣ – مطبعة بولاق – مصر ١٢٩٩هـ.

2 - انظر : الخزانة ٣٢٦/٨ ، ٣٢٧ – تحقيق عبد السلام هارون – مطبعة الخانجي – القاهرة.

الشجاعة في القول والاعتراف لأعدائهم بالقوة ، فهو في قصيدته التي مطلعها: لقد حامت عليّ بني زهير ...

يقول مخاطباً عمارة الجُشميّ:

غدا عمارة الجشمي يسمو سموّ الفحل في ضبع البكار

على قبّاء تخفق أيطلاها سنون المتن كالمسد المغار

فيطعنني وأطعنه خلافاً كخطف الصقر أعشاش القفار

فهو ينصف أعداءه ، فعمارة الجشمي كان شجاعاً كاد يفتك بالشاعر الذي تغلّب عليه بصعوبة في آخر اللقاء حين قال:

فخرّ لوجهه يكبو صريعاً كأن شؤونها فِلق النجار[1]

وأنصف أبو تمام الأعداء (جند الروم) في قصيدته في لمحة يسيرة ، وصف المحارب منهم بالفارس البطل ، ومع هذا فقد خر صريعاً غارقاً في دمائه ، قال:

كم بين حيطانها من فارس بطل قاني الذوائب من آني دم سرب

1 - من شعراء تغلب المغمورين السفاح (التغلبي) مقال للدكتور / خالد الدوفش صـ ١٠٠ ١٠١ بمجلة اللغة العربية بالمنصورة — العدد السادس عشر ١٤١٧هـ (١٩٩٧م).

ونراه في موطن آخر يصف أعداءه من الروم بالآساد ، وليست أي آساد إنها آساد الشرى ، القوية المفترسة ، ويعود فيعجل بنهايتهم قبل نضج التين والعنب ، قال:

تسعون ألفاً كآساد الشرى نضجت أعمارهم قبل نضج التين والعنب

و لم يكتف المتنبي بهذه اللمحات السريعة في وصف شجاعة أعدائه من الروم ، وإنما أطال في الوصف ، وعدّد الصفات التي يتكون من مجموعها فرسان مغاوير ، ليكون للنصر فرحة عظمى بعد الفتك بهؤلاء الأبطال. وصف جيش الأعداء فقال:

أتوك يجرون الحديد كأنهم سروا بجياد ما لهن قوائم
إذا برقوا لم تعرف البيض منهم ثيابهم من مثلها والعمائم
خميس بشرق الأرض والغرب زحفه وفي أذن الجوزاء منه زمازم
تجمع فيه كل لسن وأمة فما تفهم الحداث إلا التراحم

فهذا وصف فيه إنصاف من حيث تعبئة العدو ، وكثرة عدده وعتاده. والمتنبي صادق فيما وصف ، يقول"شلمبرجة (أحد المستشرقين الألمان) واصفاً تعبئة البيزنطيين في بعض المعارك: إنهم كانوا يؤلفون صفاً واحداً كتفاً إلى كتف ، متراصاً كالجدار ، لايمكن اختراقه[1] ".

1 - شعر الحرب في أدب العرب – د. زكي المحاسني صـ٢٦٨.

وبعد أن يصف المتنبي هذه التعبئة الهائلة بإنصاف صدق يصف ثبات المقاتلين من الفريقين في وقت اشتداد الهول واحتدام المعركة ، يقول:

فلله وقت ذوّب الغش ناره   فلم يبق إلا صارم أو ضبارم
تقطع مالا يقطع الدرع والقنا   وفرّ من الأبطال من لا يصادم

وفي موطن آخر: تمر بك الأبطال كلمى هزيمة ...

فهو يصر على وصف الأعداء بالأبطال حتى عند هزيمتهم وجرحهم. ويعود المتنبي فيصفهم بالصمود وتلقي ضربات المسلمين في معاصمهم ورؤوسهم ، يقول عند فرار الدمستق:

مضى يشكر الأصحاب في فوته الظبى   بما شغلتها هامهم والمعاصم

ويصف المتنبي وطيس المعركة وصمود الفريقين ، وشدة النزال ، وحرصهم على النصر والدفاع ، فيقول:

بناها فأعلى والقنا يقرع القنا   وموج المنايا حولها متلاطم

تلك هي أخلاق الأبطال الشجعان الذين يحبون التكافؤ في المعارك حتى إذا كان النصر حليفهم استحقوه عن جدارة.

هذا وقد رأينا تفوق المتنبي على أبي تمام في هذا الجانب ، حيث أنصف في غير موقف ، ووزع الإنصاف على موطن الحرب منذ قدوم الأعداء فرحين مختالين حتى فرارهم مهزومين مدحورين ، بخلاف أبي تمام الذي أشار إشارة سريعة لهذا الجانب.

ويرجع هذا التفوق – في رأيي – إلى خبرة المتنبي بالحرب وكثرة مشاهداته معارك سيف الدولة.

وقد اهتم المؤرخون ودارسو الأدب بالشعر الحربي عامة وبهاتين القصيدتين خاصة – فأفاضوا في وصف الشعر الحربي ودراسته والإفادة منه ، كما اهتموا بقصيدتي أبي تمام والمتنبي دراسة ونقداً.

يقول أحد المؤرخين عن قصيدة أبي تمام: "وقصيدة أبي تمام لا تقل في الحقيقة أهمية وقيمة عن "أنشودة رولان" والتي يعتز بها الأدب الأوربي، ويفسح لها مجالاً في تاريخه الأدبي. وإذا كان بطل "أنشودة رولان" هو "شارلمان" فبطل قصيدة أبي تمام هو "المعتصم". وإذا كان جهاد "شارلمان" كما تصوره الأنشودة ضد المسلمين في الأندلس ، فإن جهاد "المعتصم" كما تصوره قصيدة أبي تمام كان جهاداً ضد الروم في أرض بيزنطة[1] ".

ويقول أحد الدارسين عن قصيدة المتنبي : "تعد هذه القصيدة بأركانها المتمثلة في تماسك مفرداتها وسمو معانيها وجلال خيالها قمة القمم في تصوير المعركة الحاسمة بين الإسلام وبين الروم. وقد استخدم المتنبي

1 - دراسات في تاريخ الدولة البيزنطية – د. حسنين ربيع صـ١٤٤ – دار النهضة العربية القاهرة – الطبعة الخامسة ١٩٩٥م.

مفردات في غاية المناسبة والبساطة ولكنها صعبة في التشبيه والاختيار لدى غيره ، وذلك بحكم ثقافة المتنبي العالية[1] ".

ويأتي بعض الدارسين فيعقد موازنة سريعة بين القصيدتين ، فيقول: "عمورية أبي تمام الحربية هذه من قمم الشعر الحربي وتكاد تصل إلى حد الإعجاز البياني في حلاوة ألفاظها وفخامة أسلوبها وقوة سبكها وسمو هدفها وهو الدفاع عن الإسلام نظام الحياة الخالد. ومعانيها قمة في البلاغة والدقة والإثارة. ومعانيها تكاد تصل إلى حد السحر والإعجاز ، وأسلوبها حربي فخم رائع أتى بالفرائد بالألفاظ والثمين من المعاني والعديد من الصور الحربية المتلاحقة. أما قطعة أبي الطيب فقد قيلت في انتصار سيف الدولة على الروم ... وقد استهل المتنبي قصيدته ببداية رائعة وابتعد عن الغزل ؛ لأن الموضوع جد عظيم. وعلى الرغم من أبا تمام كان لا يحضر[2] المعارك فقد أجاد في وصف هذه المعركة ، أما المتنبي فإنه كان يشهد المعارك ويساهم بسيفه فيها. ولكن أبا تمام والبحتري وغيرهما من الشعراء الذين سبقوا المتنبي لم يفرغوا لهذا الفن كما فرغ المتنبي ثم هم لم يشتركوا في الجهاد كما اشترك فيه المتنبي[3] ".

---

1 - الحرب في شعر المتنبي – د. محمود حسن عبد ربه جـ٢ صـ٢١٠ ، ٢١١.

2 - أشرنا قبل ذلك إلى اشتراك أبي تمام في هذه المعركة ، حيث ذكرت بعض المصادر أنه شهد المعركة بنفسه. ولعل هذا من الأسباب التي جعلته يبدع في هذه القصيدة الرائعة.

3 - الحرب في شعر المتنبي – د. محمود حسن عبد ربه جـ٢ صـ٣٧٣.

وقبل كلمة الختام أود أن أشير إلى أن ميمية المتنبي لم تكن الوحيدة في "قلعة الحدث" ، وإنما ذكرت المصادر أن البيزنطيين أغاروا عليها بعد عام من بنائها سنة ٣٤٤هـ بقيادة ابن ملكهم (ليون) فوصف أبو الطيب سرية الروم هذه وما دار عليها من الأقدار التي دارت قبلها على آباء الروم وأخوالهم ، فقال:

لا ألوم ابن (لاون) ملك الرو   م وإن كان ما تمنى محالا
أقلقته بنية بين أذنيه   وبان بغى السماء فنالا
يجمع الروم والصقالب والبلـ   ـغار فيها فيجمع الآجالا
نزلوا في مصارع عرفوها   يندبون الأعمام والأخوالا[1]

ولكن هذه القصيدة لم تبلغ من الشهرة والجودة ما بلغتها الميمية ؛ لأنها لم تبلغ جودتها.

1 - شعر الحرب في أدب العرب – د. زكي المحاسني صـ٢٩٣ . وفيه إشارة على المصادر التي أخذ منها الباحث.

الفصل الثالث

القصيدتان — دراسة فنية موازنة

المعاني:

اهتم النقاد بالمعاني ، ووضعوا لها الأصول الفنية التي بها تتمايز الشعراء ، وعابوا على من خرج على هذه الأصول ، ووصفوه بالتكلف والضعف وعدم التمكن من أدوات الشعر. فقد اشترط ابن سنان الخفاجي لفصاحة الكلام "أن يكون معنى الكلام واضحاً جلياً لا يحتاج إلى فكر في استخراجه وتأمل لفهمه ، سواء كان ذلك الكلام الذي لا يحتاج إلى فكر منظوماً أو منثوراً [1] ".

والتقط القاضي الجرجاني هذا الشرط وجرّد منه شعر أبي تمام ، فوصفه بتعقيد المعاني والإغراب وعدم الوضوح ، وحمل على الشاعر حملة شعواء أراد بها أن يسقط كل شعره ، قال: "ولو كان التعقيد وغموض المعنى يسقطان شاعراً لوجب أن لا يرى لأبي تمام بيت واحد ؛ فإنا لا نعلم له قصيدة تسلم من بيت أو بيتين قد وفر من التعقيد حظهما ، وأفسد به لفظهما ، وكذلك كثر الاختلاف في معانيه ، وصار استخراجها باباً منفرداً ، ينتسب إليه طائفة من أهل الأدب ، صارت تتطارح في المجال مطارحة أبيات المعاني ، وألغاز المعمى [2] ".

---

1 - سر الفصاحة ، ابن سنان الخفاجي صـ١٠١ – شرح وتصحيح: عبد المتعال الصعيدي – مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح وأولاده بالقاهرة ١٣٨٩هـ (١٩٦٩م).

2 - الوساطة ، للجرجاني صـ٤١٧ : ٤١٩.

ويوازن الجرجاني بين أبي تمام والمتنبي في الألفاظ والمعاني ، فيمـــدح شعر المتنبي لخلوه من عيوبهما ، ويقدح في شعر أبي تمام كله لاشتماله على هذه العيوب ، ويتخذ من بيت الفرزدق المشهور بالتعقيد محـــوراً لهـــذه الموازنة ، فيورد بيت الفرزدق:

ومـــا مثلـــه في النـــاس إلا مملكـــا أبـــو أمـــه حـــي أبـــوه يقاربـــه

ويعقد تلك الموازنة قائلاً: "وأنت لا تجد في شعر أبي الطيب بيتـــاً يزيد معناه على هذا الغموض ، أو تتعقد ألفاظه تعقد أبيات الفرزدق ... فأما ديوان أبي تمام فهو مشحون بهذين القسمين ، ومن أنصف حجـــزه حضور البينة عن المنازعة[1] ".

وهذا حكم معمم مفعم بالظلم والتجني على أبي تمام ، كما أنـــه لا يخلو من مجاملة المتنبي ، إذ إن "شعر المتنبي لا يخلو من الغموض والتعقيد ، كما أن شعر أبي تمام لا يحوي هذه الكثرة الغامضة المعقدة التي رماه بهـــا الجرجاني[2] ".

وعلى كل حال فلم يذكر القاضي الجرجاني بيتاً واحداً من بائية أبي تمام في موطن حديثه عن عيوب المعاني ، مما يجعلنا نضعها في جيد شعر أبي تمام.

---

1 - الوساطة صـــ٤١٧ : ٤١٩.

2 - مآخذ القاضي الجرجاني على أبي تمام في كتاب الوساطة ، للمؤلف صـــ١٠٣.

وقد تقدم من كلام الجرجاني قبل أسطر قليلة – أنه يعيب شعر أبي تمام للاختلاف حول معانيه ، وكثرة مطارحاته في المجالس كما تتطارح الألغاز والمعميات. ولا أرى لهذا السبب وجهاً في مؤاخذة أبي تمام ، إذ إن كثرة الاختلاف حول المعاني لا تتأتى – غالباً – من الغموض وإنما لها أسباب كثيرة ، كاختلاف الروايات ، واختلاف الأذواق ، وركوب بعض المخالفات كما سنوضحه عند حديثنا عن اللغة والأسلوب وما يجره عيوبهما من هذا التعقيد المعنوي.

معاني أبي تمام:

جاءت معاني أبي تمام واضحة معبرة عن المواقف التي تناولها في قصيدته ، وسلمت من التعمية والغموض ، وكان منها الجديد المخترع الذي لم يسبق إليه ، ومنها الذي استفاده من شعراء سابقين له في معاني مختلفة.

فمن معانيه الجديدة المخترعة التي لم يسبق إليها ، هذا المطلع الرائع الذي فصل فيه بين صدق العمل وكذب الدجل:

السيف أصدق أنباءً من الكتب ... في حده الحد بين الجد واللعب

بيض الصفائح لا سود الصحائف في ... متونهن جلاء الشك والريب

ومع جدة هذا المعنى وبراعته ، فقد جاء واضحاً كل الوضوح ، كما أن اختلاف تفسيرات البيتين لا يدل على غموضهما ومعظم هذه الاختلافات لغوية تحتملها قواعد اللغة ، وهذا يدل على سعة أفق أبي تمام ومدى اطلاعه على كتب اللغة ، وسأشير إلى بعض المآخذ اللغوية والمعنوية واختلاف النقاد حولها عند الحديث عن اللغة والأسلوب.

قال التبريزي في شرح البيت الثاني: و "الشك" و "الريب" واحد ، فكرر لاختلاف اللفظين. والمعنى: أن السيوف تفصل بين الحق والباطل حتى تتبينه. وقال المرزوقي: ويحتمل أن يكون "في متونهن" خبر المبتدأ و "لا سود" معطوف عليه ، ويحتمل أن يكون "لا سود" هو الخبر ، ويكون المعنى: أن السيوف غيرُ الكتب ، كما تقول زيد غير عمرو ، أي شأنه غير شأنه ، ثم بين فقال: في متونهن كذا.

قال المحقق: ذكر ابن المستوفي في كتابه زيادة للتبريزي يرد بها على المرزوقي ، قال أبو زكريا: القول هو الأول ، وإذا جعل بيض الصفائح غير سود الصحائف على ما ادعاه جاز أن يكون قوله "في متونهن" مع ما بعده حالاً من الصفائح ، ونصب "بيض" و "سود" على ما ذكره أولى من رفعهما[1].

1 - ديوان أبي تمام ١/٤١ ، هامش (٢).

فالمعنى – كما قلت – واضح ، وإنما الاختلافات كلها اختلافـــات لغوية ، ويحتملها المعنى ؛ لاتساعه وشموله وعمقه. ومما يدل على وضوح معاني أبي تمام ، قول المعري في تفسير قول أبي تمام:

بسنة السيف والحنـــاء مـــن دمـــه   لا سنة الـــدين والإســـلام مختـــضب

أي خضب شعره بسنة السيف أي بما سنه وحكم بـــه ، لا بـــسنة الإسلام ، لأن الصحابة والتابعين كانوا يرون مـــن الـــسنة أن يخـــضبوا شعورهم بالحناء والكتم وما يجري مجراهما من نبات الأرض ، ويكرهون الخضاب بالسواد ويؤثرون الحمرة ، والمعنى الذي بناه عليه الطائي بـــيِّن واضح[1].

وتبدو وضوح معانيه حتى عند حذف بعض الكلمات ؛ لفهمها من السياق ، وذلك كما في قوله:

ما ربع ميـــة معمـــوراً يطيـــف بـــه   غيلان أبهى ربىً من ربعهـــا الخـــرب

قال المعري بعد أن أورد آراء اللغة في مفردات البيـــت: وفي بيـــت الطائي حذف يدل عليه المعنى ، وذلك أنه ذكر ربع مية وليس له بهاء إلا عند غيلان لمكان لهجه بها ، فكأن المعنى: ما ربع مية في نفس غيلان أبهى من هذا الربع الخرب في أعين المسلمين[2].

1 - ديوان أبي تمام ٥٢/١.
2 - المصدر نفسه ٥٧/١.

ومن المعاني الجديدة المخترعة ، قوله يخاطب يوم الفتح:

يا يوم وقعة عمورية انصرفت   منك المنى حفّلا معسولة الحلب

فهو معنى بديع ، إضافة لما يحمله من بديع الاستعارات وجمال الصورة. ومنها:

بكر فما افترعتها كف حادثة   ولا ترقت إليها همة النوب

فأين الغموض والإحالة في مثل هذا البيت البديع؟

ومن معانيه البكر ، قوله يخاطب المعتصم مفتخراً به:

رمى بك الله برجيها فهدّمها   ولو رمى بك غير الله لم يصب

من بعد ما أشبوها واثقين بها   والله مفتاح باب المعقل الأشب

والبيتان على كثرة اختلاف الروايات فيهما لا يخفيان على ذي لب بصير، فضلاً عن جودهما وعلو مكانتهما في مخترع المعاني.

وقد سلمت أبيات القصيدة من عيوب المعاني التي حصرها قدامة بن جعفر في: "فساد الأقسام ، وفساد المقابلات ، وفساد التفسير ، وفساد الاستحالة ، والتناقض ، وإيقاع الممتنع فيها في حال يجوز وقوعه ويمكن كونه ، ومخالفة العرف ، وأن ينسب الشيء إلى ما ليس له[1] ".

1 - نقد الشعر – قدامة بن جعفر صـ١٩٦ – تحقيق: د. محمد عبد المنعم خفاجي – مكتبة الكليات الأزهرية – القاهرة ١٣٩٦هـ.

وإن ما وقع في معانيه من فساد المقابلات لم يكن بالصورة الشائهة التي تدخل المعنى تحت هذا العيب ، بل كان بسبب اختلاف الرواية أو كان من الجائز غير المستقبح ، فمن الأول قوله:

بسنة السيف والحناء من دمه لا سنة الدين والإسلام مختضب

قال المعري: وبعضهم ينشد "بسنة السيف والخطي من دمه" : وهو أجود في صحة المقابلة ؛ لأنه يقابل الدين والإسلام بشيئين ليسا في الحقيقة مختلفين ، إذ كانا من آلة الحرب ، وهو في الرواية الأخرى يقابل الدين والإسلام بالسيف والحناء ، وليس الحناء من جنس السيف[1].

ومن الثاني قوله:

غادرت فيها بهيم الليل وهو ضحى يشله وسطها صبح من اللهب

قال التبريزي: طابق بين ظلمة الليل والصبح ، إلا أن حقيقة المطابقة أن يقول: الليل والنهار والصبح والمساء ، والأول أيضاً جائز[2].

وقد أفاد أبو تمام من معاني سابقيه ، فنظر إليها وأعمل فيها ذهنه إضافة وتغييراً ، وهذا لا يعيب الشاعر ، ولا يسمى سرقة – خاصة إذا

1 - ديوان أبي تمام ٥٣/١.
2 - ديوان أبي تمام ٥٣/١.

كان في الأمور المشتركة – وإنما تكون السرقة "في البديع المخترع الـــذي يختص به الشاعر ، لا في المعاني المشتركة بين الناس التي هـــي جاريـــة في عاداتهم ، ومستعملة في أمثالهم ومحاوراتهم ، مما ترتفع به الظنة عن الـــذي يورد أن يقال: إنه أخذه من غيره[1] ".

فأما إذا أعمل الشاعر فكره فيما أخذ ، وتدخل بخياله وعبقريته في تجديد المعنى ، فإنه يسمى حينئذ توليداً ، وهو "أن يستخرج الشاعر معنى من معنى شاعر تقدمه ، أو يزيد فيه زيادة ؛ فلذلك يسمى التوليد ، وليس باختراع ؛ لما فيه من الاقتداء بغيره ، ولا يقال له أيضاً سرقة إذا كان ليس آخذا على وجهه[2] ".

نظر أبو تمام في معاني سابقيه فاقترب من معانيهم في سبعة أبيات من القصيدة التي تبلغ واحداً وسبعين بيتاً ، وأول هذه المعاني قوله:

فالشمس طالعة من ذا وقـــد أفلـــت والشمس واجبـــة مـــن ذا ولم تجـــب

قال المحقق: في ظ : أي الشمس طالعة من اللهب وهي غاربـــة آفلـــة ، وغاربة من الدخان وهي طالعة ، ألم فيه بقول النابغة:

---

1 - الموازنة ١/٣٤٦.

2 - العـــمـــدة ١/٢٦٣.

تبدو كواكبــه والــشمس طالعــة لا النور نور ولا الإظــلام إظــلام[1]

فالمعنيان متقاربان ، غير أن أبا تمام استخرج من عقله تلك المقابلة اللطيفة التي أبعدته عن حدود السرقة.

والثاني قوله:

ومطعــم النــصر لم تكهــم أســنته يوماً ولا حجبت عــن روح محتجــب

قال الصولي: أول من قال بهذا علقمة بن عبدة فقال:

ومطعم النصر يوم النــصر مطعمــه أنى توجـــه والمحــــروم محــــروم

وله رواية أخرى في ل: "ومطعم الغنم يوم الغنم"[2].

فعلى الرواية الأخرى يكون السبق لتسمية المنتصر "مطعم النــصر" لأبي تمام ، وعلى الرواية الأولى ، يكون الفضل لأبي تمام في جعل المنتصر بأسنته التي لم تنب فهو زيادة على معنى علقمة ، وهو مناســب لموقــف الحرب والانتصار.

والثالث قوله:

لبيت صوتاً زبطريــاً هرقــت لــه كأس الكرى ورضاب الخرد العــرب

قال المرزوقي: وقوله "هرقت له كأس الكرى" مثل قول الأخطل:

1 - ديوان أبي تمام ١/٥٥ هامش (٢).

2 - المصدر نفسه ١/٥٨ هامش (٥).

قوم إذا حـــاربوا شـــدوا مـــآزرهم دون النساء ولـــو باتـــت بأطهـــار[1]

فالمعنيان متقاربان ، لأن الشاعرين استخدما فيهما الكنايـــة عـــن الجـــد والعمل وعدم الالتفات للملذات ، غير أن أبا تمام زاد على الأخطـــل في ملذات ممدوحه ، فجعلهما اثنتين : النوم ، ورضاب الزوجات المتحببات لأزواجهن.

والرابع ، قوله:

لما رأى الحرب رأي العين "تـــوفلس" والحرب مشتقة المعنى مـــن الحـــرب

قال الصولي: هذا من قول النابغة الجعدي:

وتستلب الدهم الـــتي كـــان ربهـــا ضنيناً بها ، والحرب فيها الحرائـــب[2]

ومعنى النابغة أجود ؛ للاختصار والسبق.

والخامس ، قوله:

والحـــرب قائمـــة في مـــأزق لجـــج تجثو القيام به صغراً علـــى الركـــب

قال المعري: والمعنى : أن القوم يجثون على الركب لثقل ما حملوه من أمر الحرب ، وهذا كما قال الثقفي:

إن حَمَلـــوا لم نَـــرُمْ مواقفنـــا وإن حَمَلْنا جثـــوا علـــى الركـــب[3]

1 - ديوان أبي تمام ٦١/١ هامش (٢).

2 - المصدر نفسه ٦٤/١ هامش (٣).

3 - ديوان أبي تمام ٧١/١.

ومع أن أبا تمام قد أعمل خياله في تصوير هـول الحـرب وشـدة الموقف ، إلا أن بيت الثقفي أروع ؛ لسبقه ، ولتخصيص جثو الركـب للأعداء بخلاف أبي تمام الذي جعله عاماً للفريقين.

والمعنى السادس ، قوله:

بصرت بالراحة الكبرى فلـم ترهـا تنال إلا علـى جـسر مـن التعـب

قال الصولي: مثله قول الراجز:

جئـت طليحـاً راكبـاً طليحـا تعبـت في الـسير لأسـتريحا[1]

ولا يخفى جمال المعنى في بيت أبي تمام ، وروعة الاستعارة في "جسر مـن التعب" ووصف الراحة بالكبرى ، مع عظمة الموقف الذي أنشد فيه البيت وهو النصر العظيم والفتح المبين لمدينة أبية مثل عمورية.

ويأتي المعنى السابع ليشهد له بحسن الأخذ وجودة التصرف فيمـا يأخذ ، وهو قوله:

إن الأسود أسـود الغـاب همتـها يوم الكريهة في المسلوب لا الـسلب

قال البديعي: والمعنى من قول عمرو بن كلثوم:

فـآبوا بالنـهاب والـسبايا وأبنـا بـالملوك مـصفدينا

---

1 - المصدر نفسه ١/٧٣.

إلا أن أبا تمام أخذه فأحسن[1].

وإجادة أبي تمام واضحة ، فابتعد عن النهب – وهو خاص بأيام الجاهلية – واقتصر على المسلوب والسلب ، وشبه المحاربين بأسود الغاب ووصفهم بعلو الهمة في شدة المواقف وحسن الاختيار.

ويأبى النقاد الذين لا يرضون طريقته إلا أن يصفوه بالإكثار من السرقة والإساءة فيها ، قال عبد الله بن المعتز في رسالته التي صنفها في مساوئ أبي تمام وحسناته: "وللطائي سرقات كثيرة أحسن في بعضها وأخطأ في بعض. ولما نظرت في الكتاب الذي ألفه في اختيار الأشعار وجدته قد طوى أكثر إحسان الشعراء. وإنما سرق بعض ذلك ، فطوى ذكره ، وجعل بعضه عُدة يرجع إليها في وقت حاجته ، ورجاء أن يترك أكثر أهل المذاكرة أصول أشعارهم على وجوهها ، ويقنعوا باختياره لهم ؛ فتُغبى عليهم سرقاته[2] ".

ونحن لا نسلم برأي ابن المعتز بدون أدلة ، إذ إن هذا الرأي ينفي شاعرية أبي تمام ، ويجعله عالة على الشعراء الذين بحث في أشعارهم واختزن معظمه عنده لوقت الحاجة ، وهذا لا يقول به ناقد بصير نظر في شعر الرجل وعرف عبقريته.

1 - الصبح المبني صـ٢٨١.
2 - الموشح للمرزباني صـ٣٥٢.

وقال المرزباني: "حدثني علي بن يحيى ، عن علي بن مهدي الكسروي ، قال: ومما عيب به أبو تمام قوله:

خمسون ألفاً كآساد الشرى نضجت أعمارهم قبل نضج التين والعنب

قال: وكان دعبل يزعم أنه غيَّره لما عيب عليه ، فقال:

خمسون ألفاً كآساد الشرى فقدت أعمارهم فهو وافي لجّة العطب

وأن الثاني شر من الأول ، وكان ينكر "لجة العطب" عليه [1] ".

وقد بينا صحة معنى أبي تمام ، وسلامة وجهته في ذكر التين والعنب عند حديثنا عن لغته وأسلوبه.

معاني المتنبي:

مما أخذ على المتنبي في معانيه وألفاظه "استكراه اللفظ وتعقيد المعنى، ومنها الركاكة والسفسفة بألفاظ العامة والسوقة ومعانيهم[2] ".

---

1 - الموشح للمرزباني صـ٣٥٢.

2 - يتيمة الدهر ١/١٨٤ وما بعدها.

ومما نسب إليه من حسنات في المعاني "افتضاضه أبكار المعـاني في المراثي والتعازي ، وإبراز المعاني اللطيفة في معارض الألفـاظ الرشـيقة الشريفة[1] ".

ولم يبعد النقاد عن جانب الحقيقة في الحُكمين ، فإن لأبي الطيـب حسنات كثيرة ، كما أن عليه مآخذ عديدة – وتلك طبيعة البشر ، وهذه من فوائد النقد الجيد الذي يوجه الشعراء ويأخذ بأيديهم لأفضل طـرق الأداء الشعري. وأبو الطيب المتنبي أحد أقطاب الـشعراء الـذين دارت حولهم معارك طويلة ، وانقسم عليه النقاد فرقاً عديدة ، ويمكن تقسيمهم ثلاث فرق: ١ – الذين تحاملوا عليه وراموا الحط من قـدره ، ومنـهم الصاحب بن عباد ، والحاتمي والعميدي ، والأصفهاني. ٢ – الذين لهجوا بفضله وبالغوا بإكرامه ، ومنهم ابن جني وابن رشيق والواحدي والمعري وابن وكيع والعكبري وابن خلكان والبديعي. ٣ – المعتدلون الذين راموا التوفيق بين الطرفين ومنهم الجرجاني والثعالبي وابن الأثير وهم إلى قائمـة مداحه أميل[2] ".

ولست الآن في معرض مناقشة هذه الآراء والفـصل فيهـا إذ أن خصومات المتنبي كثيرة ومتشعبة الجوانب ، وكل ما يعنينا هنا هو نقـد

---

1 - يتيمة الدهر ٢٧٢/١.

2 - أمراء الشعر العربي في العصر العباسي – أنيس المقدسي صـ٣٥١ ، ٣٥٢.

معانيه بصفة خاصة في تلك القصيدة التي نحن بصدد دراستها ، والحكم على تلك المعاني حكماً منصفاً لا ينظر بعين الهوى ، ولا تسبق فيه الأحكام.

من محاسن أبي الطيب في هذه القصيدة ، افتراعه بعض أبكار المعاني التي لم يسبق إليها ، وقد جاءت تعبيراً عن أفكاره التي قصدها. فمن هذه المعاني قوله:

خميس بشرق الأرض والغرب زحفه   وفي أذن الجوزاء منه زمازم

فهو معنى بديع ، أحاط فيه بوصف الجيش وكثرة عدده ، ولذا قال الشراح: لم يسمع في وصف جيش مثل هذا ومثل قول أبي تمام:

ملأ الملا عُصَباً فكاد بأن يُرى   لا خلف فيه ولا له قدام[1]

وقوله:

بضرب أتى الهامات والنصر غائب   وصار إلى اللبات والنصر قادم

وهذا ما جعل الشراح يفسرون تلك الصورة من الضرب الذي وصفه المتنبي ، فقال ابن جني: إذا ضربت عدواً فحصل سيفك في رأسه لم تعتد ذلك نصراً ولا ظفراً ، فإذا فلق السيف رأسه فصار إلى لبّته ، فحينئذ يكون ذلك عندك نصراً ولا يرضيك ما دونه.

---

1 - شرح ديوان المتنبي ٤/١٠٠.

وقال ابن فورجة: إنما عني أبو الطيب سرعة وقوع النصر وأنه لم يلبث إلا قدر وصول السيف المضروب به من الهامة إلى اللبة ، كأنه يقول: نازلت العدو والنصر غائب ، وضربتهم بالسيف وقد قدم النصر[1]. وقد اختصر المتنبي هذه الشروح بكلمات يسيرة وركبها تركيباً بديعاً.

ومن هذه المعاني قوله:

نثــــرتهم فـــوق الأحيـــدب كلـــه   كما نثرت فوق العـــروس الـــدراهم

فهو معنى بديع أشار فيه إلى تمكن سيف الدولة ، وإحاطته التامة بهم حتى لعب بهم ورماهم رمية متناثرة. وقال العبكري: وهذا من محاسن أبي الطيب ، وقد أشار بهذا إلى أن سيف الدولة تحكم في الروم قتلاً وأسراً ، ونثر جيشهم فوق هذا الجبل نثراً [2].

ومنها قوله:

ولـــست مليكـــاً هازمـــاً لـــنظيره   ولكنـــك التوحيـــد للـــشرك هـــازم

فقد نقل المعنى من الفردية إلى العقدية ، فجـــسد المعركـــة بـــين عقيدتين، ولم يحصرها في شخصين ، وهذه نظرة إسلامية صائبة ، وحماسة شديدة لهذا الجهاد المبارك.

---

1 - شرح ديوان المتنبي ٤/١٠٤.
2 - المصدر نفسه ٤/١٠٤.

ونظر المتنبي إلى معاني بعض الشعراء ، فأخذ منها أبياتاً في تلك القصيدة أحسن في بعضها وأساء في الآخر ، فمنها قوله:

على قدر أهل العزم تأتي العزائم   وتأتي على قدر الكرام المكارم

قال الأستاذ عبد الرحمن البرقوقي: وهذا كقول عبد الله بن طاهر:

إن الفتوح على قدر الملوك   وهمّات الولاة وإقدام المقاديم[1]

ومعنى المتنبي أجود وأعم ؛ للزيادة في ذكر المكارم.

وقوله:

وكان بها مثل الجنون فأصبحت   ومن جثث القتلى عليها تمائم

قال ابن وكيع: وقد لاذ أبو الطيب بقول أبي تمام:

تكاد عطاياه يُجنّ جنونها   إذا لم يعوذها بنعمة طالب[2]

ونحن نرى أن المعنيين متباعدان ، فليس فيهما من الشبه سوى ذكر الجنون ، وهو في معنى أبي تمام خاص بالنعمة ، وفي معنى أبي الطيب خاص بالحرب ، كما أن التمائم في بيت أبي الطيب من جنس جديد وهو القتلى.

وقوله:

تفيت الليالي كل شيء أخذته   وهن لما يأخذن منك غوارم

---

1 - شرح ديوان المتنبي ٤/٩٤.

2 - المصدر نفسه ٤/٩٧.

قال البرقوقي: وهذا من قول بعضهم:

فما أدرك الساعون فينا بوترهم ولا فاتنا من سائر الناس واتر

وقول الطرماح:

إن نأخذ الناس لا تُدرك أخيذتنا أو نطلب نتعدى الحق في الطلب[1]

والقول الأول أجود من قول المتنبي ؛ لوضوحه وعمومه وذكر الوتر وعدم إدراك أحد لهم وسهولة الطلب من جانبهم. وقول المتنبي أجود من قول الطرماح ؛ لعموم قول المتنبي بقوله "كل شيء" وتخصيص الطرماح "الأخيذة" وجوره عن الحق في الطلب.

وقول المتنبي:

إذا كان ما تنويه فعلاً مضارعاً مضى قبل أن تُلقى عليه الجوازم

قال ابن وكيع: هو مأخوذ من قول أبي تمام:

خرقاء يلعب بالعقول حَبابَها كتلاعب الأفعال بالأسماء[2]

ومعنى المتنبي جيد وبديع ، وبعيد كل البعد عن معنى أبي تمام الذي يصف فيه الخمر وتلاعبها بالعقول. أما معنى المتنبي فهو فيه الحزم والمضاء. وقال فيه العكبري: يريد: ما أسعده الله به وأظهره له من سعده في قصده، فإذا كان ما تنويه فعلاً مستقبلاً – ولفظ المستقبل يقع على الدائم الذي لم

1 - شرح ديوان المتنبي ٩٧/٤.

2 - المصدر نفسه ٩٨/٤.

ينقطع وعلى المتأخر الذي لم يقع – صار ذلك الفعل ماضياً بوقوعه منه ، ومتصرفاً بتمكنه منه قبل أن تلحقه الجوازم ، فتثبته فيما لم يجب وتـدخل عليه فتخلصه فيما لم يقع[1].

وقول المتنبي:

تمر بك الأبطال كلمى هزيمة ووجهك وضاح وثغرك باسم

قال العبكري: وهذا كما قال مسلم بن الوليد:

يفتر عند اقتراب الحرب مبتسما إذا تغير وجه الفارس البطل[2]

وللمعنيان وجاهتهما ، فمسلم جعل صاحبه يفتر مبستماً عن اقتراب الحرب ، وأخفى ملامح وجه الفارس البطل لنتصور فيه كل ملامح البؤس والشقاء. والمتنبي جعل صاحبه وضاح الوجه باسم الثغر عند مرور الأبطال كلمى هزيمة بهذا التخصيص.

وقول المتنبي:

على كل طيار إليها برجله إذا وقعت في مسمعيه الغمائم

قال البرقوقي: وما أبدع قول ابن المعتز – ولعل بيت المتنبي ينظر إليه:

وليل ككحل العين خضتُ ظلامه بأزرق لماع وأخضر صارم

وطيارة بالرجل خوفاً كأنما تصافح رضراض الحصى بالجماجم[3]

---

1 - شرح ديوان المتنبي ٩٨/٤.

2 - المصدر نفسه ١٠٢/٤.

3 - المصدر نفسه ١٠٨/٤.

قلت: صحيح إن معنى ابن المعتز بديع ، ولكنه وصف فرسه بالسرعة ، ولكن معنى المتنبي أجود ؛ لأنه جعل السرعة بسبب سماع فرسه صوت الحرب.

ومن المعاني التي أخذها أبو الطيب فأجاد فيها ، ادعاؤه أن الطير من جملة الجيش ، فقد قال فيها مسلم بن الوليد:

أشربْتَ أرواح العدا وقلوبها خوفاً فأنفُسها إليك تطير

لو حاكمتك فطالبتْك بذحلها شهدت عليك ثعالب ونسورُ

وقال المتنبي:

يفدّي أتم الطير عمرا سلاحه نسور الملا أحداثها والقشاعم

ما ضرها خلق بغير مخالب وقد خُلقت أسيافه والقوائم

قال البديعي: "وهذه من أعاجيب أبي الطيب المشهودة ، ولو لم يكن من الإحسان في شعره غيرها لاستحق بها فضيلة التقديم[1] ".

والمعنى – بلا شك – جيد ، ولكننا لا نوافق الشيخ البديعي على هذا الإطراء المبالغ فيه!. وقد تعرضنا لبعض أخطاء المعاني الناتجة عن سوء استخدام اللفظ والأسلوب وباختلاف الرواية في مواطن أخرى فلم نتعرض لها هنا منعاً للتكرار.

1 - الصبح المنبي صـ٧٧.

الصــورة الفنيــة

صور أبي تمام:

عاب كثير من النقاد أشعار أبي تمام وردوا هذا العيب لفساد صوره – خاصة استعاراته – ومعانيه المولدة ، ومن هؤلاء النقــاد الآمــدي في موازنته حين قال: "ولأن أبا تمام شديد التكلــف ، صــاحب صــنعة ، ومستكره الألفاظ والمعاني ، وشعره لا يشبه أشعار الأوائــل ولا علــى طريقتهم ؛ لما فيه من الاستعارات البعيدة والمعاني المولدة[1] ".

ووضع الآمدي أصولاً للاســتعارة الجيــدة ، وهــي "أن تكــون الاستعارات والتمثيلات لائقة بما استعيرت له وغير منافرة لمعناه[2] ".

ومن النقاد الذين تحاملوا على أبي تمام القاضي الجرجاني ، فقد جمع في وساطته عدة استعارات لأبي تمام ووصفها بالقبح وسوء الاســتخدام ، وأنها كانت سبباً في فساد شعره ، وقد عرضت لها بالدراسة والنقد في غير هذا الكتاب[3].

---

1 - الموازنة ١/١١ ، ١٢ ، ٣٨٠.

2 - المصدر نفسه ١/١١ ، ١٢ ، ٣٨٠.

3 - راجع: مآخذ القاضي الجرجاني على أبي تمام في كتاب الوساطة ، للمؤلف صـــ١١٩ وما بعدها.

وقد استخدم أبو تمام في قصيدته صوراً بيانية بديعة في التعبير عــن معانيه ، ورسم بها لوحات فنية رائعة دلت على شاعرية واعية ، وبصيرة نافذة. فاستخدم الاستعارة ، والكناية ، والتشبيه طرقاً لهذه الصور المعبرة.

فمن الاستعارات الرائعة التي اخترعها أبو تمام قوله:

حــتى إذا مخــض الله الــسنين لهــا مخض البخيلة كانت زبــدة الحقــب

فالمعنى كما قال الصولي: إن هذه المدينة لما أغفلتها السنون حــتى زادت وحسنت فصارت زبدة أتاهم المعتصم ففتحها.

والاستعارة جديدة ، وقال المعري عنها: هذه استعارة لم تــستعمل قبل الطائي[1]. فما أجمل مخض الله السنين لها ، وما أروع مخض البخيلــة الحريصة على استخراج كل ما في لبنها من زبد ، وما أبهى زبدة الحقب.

ومن استعاراته اللطيفة قوله:

حتى كأن جلابيب الــدجى رغبــت عن لونها وكــأن الــشمس لم تغــب

فالجلابيب جمع جلباب وهو القميص أو الرداء ، والدجى جمع دجية وهو الظلمة ، واستعار أبو تمام الجلابيب للدجى ، ليــشعرنا بتمــام الظـــلام وعمومه.

وما أجمل الاستعارة في قوله: "هرقت له كأس الكرى ورضــاب الخـــرد العرب". وإذا كانت "هرقت" تستخدم في المياه وما جــرى مجراهــا في

---

1 - ديوان أبي تمام ١/٤٩ ، ٥٠.

السيلان ، فإن أبا تمام استخدمها في المعنوي واستعارها للنـوم ، وكـأن النوم كأس يُشرب فيستريح به الشارب من عناء العمل ، إلا أن المعتصم سفحه ولم يتناوله رافضاً اللذة من أجل نصرة دين الله ، ولم يكن المعـنى ليبرز بهذه الصورة البديعة لولا استعارة أبي تمام.

وفي قوله: "حتى تركت عمود الشرك منعفراً" استعارة قوية تـدل علـى التركيز على مهام الأمور وترك صغارها ، إذ إن عمود الشرك هو أصـله الذي يحمل أسسه. ولم يكتف أبو تمام بالاستعارة فجمع معها الكناية في قوله "منعفراً" دليلاً على السقوط والامتهان ، وهي في روايـة أخـرى "منقعراً" من قوله تعالى "كأنهم أعجاز نخل منقعر".

وقد يحشد في البيت الواحد أكثر من استعارة فيكثـف الـصورة ويفرّع المشاهد وكأنه يمتع المتلقي بهذه اللوحة التي رسمتها كلماته ، كما في قوله:

يا يوم وقعـة عموريـة انـصرفت منك المنى حفـلاً معـسولة الحلـب

قال المعري: الحفل جمع حافل وهي التي حفل ضرعها باللبن وهو هاهنـا مستعار للمنى. والحلب: ما حُلب من اللبن وهو مستعار[1].

---

1 - ديوان أبي تمام ١/٤٦.

ولا يخفى جمال الصورة في هذا البيت عندما جمع فيه استعارتين ، فجعل المنى حافلة باللبن المعسول ، أي بالأماني الحلوة على وجه الاستعارة، فزادت بها البهجة وعم الفرح بهذه الأماني المنتصرة.

ويستخدم لوناً آخر من ألوان البيان ، وهو الكناية ، فيعبر بها عن آماله وأفراحه باجتثاث المعتصم أصول العدو ، صغيرهم وكبيرهم في قوله:

لم تطلع الشمس فيه يوم ذاك على بان بأهل ولم تغرب على عزب

ويرسم بالكناية صورة ساحرة لهذا القائد المحنك الذي ملأ الدنيا كلاماً وزهواً إلا أنه لا يستطيع فتح فمه في الميدان القتالي الذي يختبر الرجال ويميز الأبطال ، يقول: ولَّى وقد ألجم الخطي منطقه .....

ولننظر إلى "توفلس" ملجماً بلجام قوي الشكيمة لا يستطيع معه حراكاً ولا نطقاً ، فالرمح يسد شدقيه ويملأ فمه !.

وما أروع الكناية في قوله:

بكر فما افترعتها كف حادثة ولا ترقت إليها همة النوب

صورة جديدة لمدينة فريدة ، تأبّت على العظماء ، وامتنعت عن الحكماء حتى نالتها كف المعتصم فطوتها طياً وامتلكتها جيوشه. وما أجمل المشاكلة بين "افترعتها" و "بكر".

ويستعين أبو تمام بالتشبيه في تحسين صورة القبيح ، هذا القبيح في نظر العدو غدا جميلاً حسناً في عيون المسلمين ، وهذه الصورة لمدينة عمورية الخربة بعد الفتح وكيف فرح بها المسلمون – مع خرابها – يقول:

ما ربع مية معموراً يطيف به غيلان أبهى ربىً من ربعها الخرب

ولا الخدود وقد أدمين من خجل أشهى إلى ناظر من خدها الترب

سماجة غنيت منا العيون بها عن كل حسن بدا أو منظر عجب

إنها صورة مركبة ، ولوحة رائعة لتلك المدينة الخاوية على عروشها ، ولكنها تبدو في نظر فاتحيها أجمل من كل صورة ، وأبدع من أبهى منظر، حتى من صورة المحبوبة في عين حبيبها في دار عامرة ، وخدود ناضرة!. ولم ينس أبو تمام الإشارة لأحد المحبين الغزلين ، وهو ذو الرمة صاحب مية رمزاً منه لشدة التعلق ، وكثرة الهيام.

وهكذا استعان أبو تمام بالبيان في رسم صوره ، وتلوين لوحاته ، فعبر بهذه الصور تعبيراً دقيقاً ينم عن صنعة فنية ، وشاعرية فذة.

صور المتنبي:

حفل المتنبي بالصورة ، وحشد لها من المقومات ما يجعلها في أروع حالاتها ، فاستعان بالبيان استعارة وكناية وتشبيهاً – وركب من هذه الأساليب كثيراً من الصور التي أبانت عن فنان مبدع ، وماهر حاذق – خصوصاً في المديح ووصف المعارك.

استعان بالاستعارة في قوله: (سقتها الجماجم) إذ الجماجم لا تسقي ، وإنما الماء الذي يسقي كما قال في الشطر الأول "سقتها الغمام الغرُّ قبل نزوله" وجاءت هذه الاستعارة لتبين كثرة القتلى وتناثرها في هذه القلعة. كما استعار للمنايا موجاً متلاطماً لكثرة القتل فكأن المنايا بحر تتلاطم أمواجه في قوله: "وموج المنايا حولها متلاطم" فهذه الاستعارة أعطت صورة لما يجري في الميدان من كثرة القتلى واضطراب الصفوف ، فكأن الموت بحر هائج تصطخب أمواجه وتبتلع المقاتلين.

وما أجمل الاستعارة التي ختمها بالمشاكلة اللفظية في قوله يصف سيطرة سيف الدولة على جيش العدو!

ضممت جناحيهم على القلب ضمة تموت الخوافي تحتها والقوادم

إنها صورة رائعة لبطل يقبض بكفيه على الميمنة والميسرة كما يقبض الرجل القوي على جناحي الطائر فيقضي على صغار الريش من قوادم وخواف. وختم استعارته بالخوافي والقوادم وهو من المشاكلة اللفظية ؛ لأنه لما جعل للجيش جناحين ذكر لوازم الجناحين وهي القوادم ، عشر ريشات في مقدم جناح الطائر ، والخوافي ما تحت القوادم.

ومن الاستعارات اللطيفة ، قوله في موطن شكر النعم يصف بعضها:

على كل طيار إليها برجله إذا وقعت في مسمعيه الغماغم

فهو لا يشكر سيف الدولة فقط ، وإنما يتعدى الشكر إلى الفخر بتلك النعم وهي الخيول التي هي أداة لملاقاة الأعداء وصحبة هذا البطل في الميدان.

واستعان بالكناية أيضاً في تضخيم قوة هذا الجيش وكثرة عدده ، واختلاف أجناس محاربيه ، قال:

خميس بشرق الأرض والغرب زحفه وفي أذن الجوزاء منه زمازم

تجمع فيه كل لسن وأمة فما تفهم الحداث إلا التراجم

ويرسم المتنبي بالكناية زاوية أخرى للدمستق الذي لم يميز ريح الليوث قبل ذلك ، ولكنه يميز صوتاً أعجمياً صادراً من سيوف القائد المنتصر سيف الدولة وهي تحذ رقاب ومعاصم أصحابه ، يقول:

ويفهم صوت المشرفية فيهم على أن أصوات السيوف أعاجم

فهو كناية عن كثرة ارتياده الحروب مع سيف الدولة وسماعه هذه النغمات التي ألفها حتى أتقن لغتها التي لا تبين !.

كما تعبر الكناية عن جهالة الدمستق وعدم اتعاظه بما حدث له في سابق أيامه حتى يستحق أن ينحط عن رتبة البهائم ، قال:

أينكر ريح الليث حتى يذوقه وقد عرفت ريح الليوث البهائم

و لم يكن المعنى ليبلغ قمته في التعبير بدون تلك الكناية البديعة.

واستعان بالتشبيه في التعبير عن الكثرة الكاثرة في القوة والعتاد في جيش العدو ؛ ليكون للنصر بعد ذلك فخر ووقع في النفوس ، قال في تشبيه جيش العدو:

أتوك بجرون الحديد كأنهم   سروا بجياد ما لهن قوائم

فالتشبيه ضخم من صورة العتاد المحمول فوق الخيول ، حتى خُيل للناظر أن الخيول لا قوائم لها من كثرة ما تحمل من حديد مرصوص متلاحم.

ولا يخفى جمال التشبيه في الصورة التي رسمها لشجاعة سيف الدولة في قلب ساعة الوغى غير مبالٍ بالموت ، قال:

وقفت وما في الموت شك لواقف   كأنك في جفن الردى وهو نائم

تمر بك الأبطال كلمى هزيمة   ووجهك وضاح وثغرك باسم

إنها صورة بطل لا يراع من الموت في وقت كلحت فيه الوجوه ، وجرحت فيه الأبطال ، وهو لا يزال واقفاً في ثبات واطمئنان باسم الثغر وضاح الجبين.

وما أروع التشبيه في قوله يصف صعوبة مراقي الخيل للجبال:

إذا زلقت مشيتها ببطونها   كما تتمشى في الصعيد الأراقم

فهي صورة بديعة – مع ما فيها من مبالغة – رسمتها يد فنان خبير بمواطن القتال وما يجري فيه من كر وفر ، وعبرت عن حسن تصرف القائد وقت الشدة ووقوع المفاجآت.

ويُنطق الحديد بالتشبيه البديع في قوله يصف تمكن سيف الدولة من رقاب الأعداء:

حقرت الردينيات حتى طرحتها   وحتى كأن السيف للرمح شاتم

ويأتي التشبيه عند المتنبي في أعلى مواقعه عندما يوظفه لتصوير الصراع العقدي بين ملتين ، يقول:

ولست مليكاً هازماً لنظيره   ولكنك التوحيد للشرك هازم

فما أروع التشبيه وما أجمل المعنى الذي تضمنه.

ويأتي التشبيه مرة أخرى في معرض الفخر بهذا البطل / السيف مع وصف المشبه به وحذف المشبه للخطاب ، فيقول:

ألا أيها السيف الذي ليس مغمدا   ولا فيه مرتاب ولا منه عاصم

ألا ما أوقى هذا السيف وأصلبه! ، فهو سيف مصلت دائماً ولا يشك في قواه أحد ، ولا يسلم من حده معتد. ولم يكن المعنى ليتم إلا بهذه الصورة التشبيهية الرائعة.

ويبلغ التشبيه عنده ذروته في قبض سيف الدولة على أعدائه كما يقبض على دريهمات لينثرها فوق عروس ، يقول:

نثرتهم فوق الأحيدب كله   كما نثرت فوق العروس الدراهم

إنها صورة بديعة ، يقف القائد البطل فيجمع أعداءه في كف ثم يرمي بهم فوق جبل مرتفع لتهوي الجثث من مكان سحيق. والصورة مع ما فيها من مبالغة إلا أنها مقبولة لقرب طرفي التشبيه.

بكل هذه الألوان البلاغية استطاع المتنبي أن يعبر عن معانيـــه وأن يرسم صوره على اختلاف أغراضها من مديح وسخرية ووصف في براعة فائقة وإتقان للفن البلاغي الراقي ، ومهارة في الرسم واستخدام أدواته.

اللغة والأسلوب

لغة أبي تمام وأسلوبه:

تمكن أبو تمام من أدواته الفنية تمكناً بارعاً ، فأتقن اللغة والأسلوب وعرف طرقها الصحيحة ، ومواطن الإجادة ، ومزالق الضعف ، فجاءت – لذلك – لغته عربية فصيحة صحيحة ، وتجنب الألفاظ الركيكة الضعيفة وقليلة الاستعمال. كما وزع ألفاظه على معانيه توزيعاً بديعاً فبدت قصيدته في شكل رائع.

ولو تتبعنا ألفاظه الواردة في قصيدته لوجدنا ذلك واضحاً جلياً ، فمثلاً نراه يستخدم ألفاظاً حربية عسكرية في أثناء حديثه عن أساليب القتال وأدواته وما أحدثه في المدينة من دمار ورعب مثل (السيف ، الأرماح ، بيض الصفائح ، قضب الهندي ، الخميسين ، نبع ، وحشة الساحات والرحب ، سناها ، شهب الأرماح لامعة ، للنار ، أوسعت جاحمها من كثرة الحطب ، بهيم الليل وهو ضحى ، صبح من اللهب ، كأن الشمس لم تغب ، ضوء من النار ، ظلمة من دخان ، ربعها الخرب، خدها الترب ، السمر والقضب ، أسنته ، جيش من الرعب ، جحفلاً ، يوم الوغى ، هدّمها ، ظبى السيوف ، أطراف القنا ، الحرب ، غزو ، يوم الكريهة ، الخطي). كما نلاحظ تكرار بعض الألفاظ أكثر من مرة كالسيف والحرب.

ونراه يستخدم ألفاظاً دينية عند وصف الفتح ومـــديح المعتــصم ؛ إشارة منه إلى أن هذا الفتح جهاد في سبيل الله وقمع للشرك وصناديده ، فنسمع (الأوثان والصلب ، فتح الفتوح ، فتح تفتح أبواب السماء لـــه ، بني الإسلام في صعد ، والمشركين ودار الشرك في صبب ، أمير المؤمنين ، حسن منقلب ، الكفر ، تدبير معتصم بالله ، منتقم لله ، مرتقـــب في الله مرتغب ، تقدمه جيش من الرعب ، رمى بك الله برجيها فهدمها ، لـــو رمى بك غير الله لم يصب ، والله مفتاح باب المعقل الأشـــب ، تركـــت عمود الشرك منعفرا ، غزو محتسب لا غزو مكتسب ، خليفة الله جازى الله سعيك عن جرثومة الدين والإسلام ، أيام بدر).

ونلاحظ تكراره الكلمة أكثر من مرة في غـــير موضـــع تأكيـــداً لأهميتها، وإلحاحاً منه على توظيفها في مكانها ، كالسيف ، والحـــرب ، والدين ، والإسلام ، ولفظ الجلالة مجروراً ومرفوعاً (معتصم بالله ، منتقم لله ، رمى بك الله ، والله مفتاح باب المعقل الأشب ، جازى الله سعيك). كما نلاحظ أن أبا تمام ذكر كثيراً من أدوات الحرب ولكنـــه لم يـــذكر الخيل ، و لم يتعرض لها بخلاف المتنبي الذي أتقن هذا الفن – أعني وصف الخيل في الحرب – فكان – المتنبي – جديراً أن يطلق عليه ابن الأثير: قائد عسكر ! وسنتعرض لهذا الفن عنده بشيء من التفصيل.

ولا يطعن في صحة ما قلناه عن ألفاظ أبي تمام من وجـــود بعـــض المخالفات اللفظية التي ذكرناها في مآخذنا على قصيدته ؛ لأنهـــا قليلـــة بالنسبة لكثرة ألفاظه الصحيحة في القصيدة ، ولأنه اضطر لاســـتخدامها لضرورة الشعر الذي يجوز فيه ما لا يجوز في النثر.

وخلا أسلوبه أيضاً من الضعف والركاكة والتعقيد الذي يتبع تعقيد المعنى ، فكان الأسلوب مشرقاً واضحاً ، واتبع فيه أبو تمام قواعد اللغـــة الصحيحة في تركيبه ، فعبرت الجمل عن المعاني أدق تعبير. ولم يقتصر أبو تمام في إيراد أسلوبه على لون واحد من ألوان الأساليب المعروفة وإنما عبر عن معانيه بألوان مختلفة من الأساليب ، واختار لكل معنى لونـــاً يناســـبه ويشف عما في نفسه من التعبير المقصود.

فاستخدم الأسلوب الخبري في مواطن كثيرة يستدعيها المقام ، ولا يقوم غيره مقامها في هذه المواطن ، كالبداية التي يقـــصها علـــى النـــاس ويفصل فيها بين الحق والباطل بعد أن كثـــرت الأخبـــار ، واتـــسعت الأكاذيب ، فاستطاع بالأسلوب الخبري أن يقضي على هذه الأراجيـــف وأن يقرر الواقع الحق ، فقال:
السيف أصدق أنباءً من الكتب ، بيض الصفائح لا ســـود الـــصحائف ، والعلم في شهب الأرماح لامعة ، تخرصاً وأحديثاً ملفقة ، عجائباً زعموا الأيام مجفلة. ولا يخفى جمال التقديم في الأسلوبين الأخيريـــن : وخوفـــوا

الناس من دهياء مظلمة ، وصيروا الأبرج العليا مرتبة ، يقضون بالأمر عنها وهي غافلة.

ويعود فيستخدم الأسلوب الخبري في وصف "عمورية" والحديث عن قوتها ، وكأنه بهذا الأسلوب يكرر ما يقوله عنها أهلوها تسليماً لهم باعتقادهم ، ليعود بعد الفتح يكذبهم ويسخر من قوتهم ، قال: وبرزة الوجه قد أعيت رياضها كسرى ، بكرفها افترعتها كف حادثة. ثم يصفها بعد الخراب فيقول: أتتهم الكربة السوداء سادرة ، جرى لها الفأل برحاً يوم أنقرة ، فالشمس طالعة من ذا وقد أفلت.

ويختم قصيدته بالأسلوب الخبري ، وكأنه بهذا يضع خبراً في التاريخ يظل شاهداً على هذا الإنجاز العظيم ، والدفاع المجيد عن العقيدة والوطن:

أبقت بني الأصفر الممراض كاسمهم   صفر الوجوه وجلت أوجه العرب

واستخدم أسلوبي التعريف والتنكير في موطنها ، فالتعريف يقطع الشك ، والتعريف بالإضافة يكسب المضاف خصوصيته من صفات المضاف إليه ، والتنكير يفيد التعظيم والتهويل ، وقد مر بنا كثيراً من أسلوب التعريف بغير الإضافة ، وأما أسلوب التعريف بالإضافة فمنها قوله: بني الإسلام ، عمود الشرك ، خليفة الله ، أمير المؤمنين ، أيام بدر ، غزو محتسب ، غزو مكتسب ، مخض البخيلة ، مطعم النصر ، كأس الكرى ، حر الثغور ، رأي العين ، أسود الغيل. ومن أسلوب التنكير

قوله: بكر ، فارس بطل ، جحفلا ، جيش من الرعب ، صوتاً زبطريـــا ، بسكتة ، حوباء ، مأزق لجج.

واستخدم أسلوب النداء في عدة مواقف ؛ ليستحضر المشهد ويضعه للمتلقي بين يديه مهما طال الزمن ، مثل قوله: فتح الفتوح تعالى أن يحيط به .... ، يا يوم وقعة عمورية انصرفت ، لقد تركت أمير المؤمنين بهـــا ، خليفة الله جازى الله سعيك ، يا رب حوباء لما اجتث دابرهم طابت.

و لم ينس أن يستخدم أسلوب الاستفهام والشرط والنفي والاستثناء موظفاً كل هذه الساليب في مواقعها المناسبة ، مما أكسب المعنى جمـــالاً ، وأضفى على العمل بريقاً وروعة. فيستخدم الاستفهام في السخرية مـــن المنجمين وأكاذيبهم ، وكأنه يشمت بهم بعد دحرهم ، ويلقنهم درساً في عدم الاعتقاد بالدجل والباطل ، يقول مندداً بهم:

أين الرواية أم أيـــن النجـــوم ومـــا صاغوه من زخرف فيها ومن كذب؟

ويستخدم الشرط والنفي مجتمعين في إكمـــال صـــورة الـــسخرية السابقة فيقول:

لو بينت قـــط أمـــراً قبـــل موقعـــه لم تخف ما حل بالأوثـــان والـــصلب

ويستخدم النفي في تحسين صورة القبيح ، وهو يتحدث عن جمـــال عمورية بعد سقوطها في أعين الفاتحين ، يقول:

ما ربع ميـــة معمـــوراً يطيـــف بـــه غيلان أبهى ربىً من ربعهـــا الخـــرب
ولا الخدود وقد أدمين مـــن خجـــل أشهى إلى ناظر مـــن خـــدما التـــرب

ويستخدم النفي والاستثناء في تعظيم أمر المعتصم بالله ووصف ثباته ورباطة جأشه ، يقول:

لم يغـــز قومـــاً ولم ينهـــد إلى بلـــد إلا تقدمـــه جـــيش مـــن الرعـــب

وأخيراً يستخدم "كم" العددية ويوظف أسلوبها في التهويل وكثـــرة القتلى والجرحى والدمار بعد غزو عمورية ، يقول:

كم بين حيطانها من فـــارس بطـــل قاني الـــذوائب مـــن آني دم ســـرب
بسنة السيف والإسلام مـــن دمـــه لا سنة الـــدين والإســـلام مختـــضب

ويقول:

كم نيل تحت سناها من ســـنا قمـــر وتحت عارضها من عـــارض شـــنب
كم كان في قطع أسباب الرقاب بهـــا إلى المخـــدرة العـــذراء مـــن ســـبب
كم أحرزت قضب الهندي مـــصلته تهتـــز في قـــضبٍ تهتـــز في كُثُـــب

بقي أن نتحدث عن الأخطاء اللغوية والأسلوبية والتي يترتب عليها أخطاء معنوية ، ووردت في قصيدة أبي تمام في غير هذا الـــديوان الـــذي اعتمدناه ، وبنى بعض العلماء الأخطاء عليها ، ولكنهم لـــو ردوهـــا إلى الرواية الصحيحة لما حدث هذا الخطأ المنسوب إلى أبي تمام على غير حق.

قال أبو تمام:

والعلم في شهب الأرمــاح لامعــة   بين الخميسين لا في السبعة الــشهب

(لامعةً) هي الرواية الصحيحة ، وقال المعري: لامعةً "نصب على الحــال من شهب الأرماح ، وهي الرواية الصحيحة. ومنهم من يقول: "لامعُــهُ" فيضيف "لامعاً" إلى الهاء وذلك رديء ، والوجه الأول هو الصواب[1].

قال أبو تمام:

وصــيّروا الأبــرج العليــا مرتَّبــة   ما كــان منقلبــاً أو غــير منقلــب

(مرتِّبة) بكسر التاء هو الصحيح. قال المعري: الوجه أن يروي "مرتبــة" بكسر التاء ، ويكون قوله "ما كان منقلباً" في موضع بدل من مرتبة ، فإن رويت "مرتَّبة" بفتح التاء فهو وجه ضعيف. ولا يحسن إذا كــسرت أن يُجعل قوله "ما كان" في موضع نصب على المفعول ، لأن المعــنى الأول أشبه بهذا الموضع ، إذ كان المنجمون يجعلون في البروج منقلباً وثابتاً[2].

وقال المحقق: أورد ابن المستوفي كلام أبي العلاء هــذا ورد عليــه بقوله: وفي إبدال أبي العلاء "ما كان منقلباً" من قوله "مرتبة" بُعْدٌ يــبين لمتأمله ، وإذا روى "مرتبة" بكسر التاء كان موضع "مــا" نــصباً علــى المفعول به ، أي جعلوها ترتب هذين الجنسين منها كأنها ترتب أنفسها في

1 - ديوان أبي تمام ٤٢/١.
2 - ديوان أبي تمام ٤٤/١ ، ٤٥.

المنازل ، ويجوز أن يكون "ما" بدلاً من الأبرج العليا ، ويجوز أن يكون صفة لها[1].

قال أبو تمام:

غَدَا يصرف بالأموال جريتها فعزه البحر ذو التيار والحدب

الصحيح (جريتها) بالراء المهملة.

قال الصولي في شرح هذا البيت: ومن روى "جزْيتها" بالزاي فقد صحف؛ لأنه لو بذَل الجزية لأخذت منه ، وإنما بذل مالاً لا على سبيل الجزية[2].

وقال المحقق في هـ س : "جزيتها" بالزاي عن أبي علي البغدادي وهي رواية د. وقال الصولي: وسمعت مرة من لا يفهم شيئاً ويدعي كل شيء ولا أسميه ، يقول: "جزيتها" يذهب إلى أنه أراد أن يعطي الجزية ، وهذا تصحيف قبيح ؛ لأنه لو بذل الجزية لأُخذت منه ، والبيت الذي بعده تصحيح ما فسرناه ، فأما الجزية لو بذلت وأخذت لكانت أجلّ من كل فتح ، وبذلك أرسل عمر بن الخطاب إلى "ليون" ملك الروم : إما أن تسلم ، وإما أن تؤدي الجزية ، وإما الحرب" فبذلوا له ولجميع المسلمين مالاً عظيماً لينصرفوا فلم يقبله[3] ".

1 - ديوان أبي تمام ١/٤٥ هامش (١).

2 - المصدر نفسه ١/٦٥.

3 - ديوان أبي تمام ١/٦٥ هامش (١).

وحق للصولي أن يسخر من سوء فهم من رواها "جزيتها" بالزاي ، لأنه لو بُذلت الجزية لامتنع المعتصم عن حربهم ، وإنما كل المال الذي بذل كان على سبيل الافتداء بعد أن وقعت الحرب كما دلت عليه روايات التاريخ.

وقال أبو تمام:

أحذى قرابينه صرف الردى ومضى   يحتث أنجى مطاياه من الهرب

قال المعري: ومن روى: "أزجى مطاياه" فقد صحّف[1].

وقال المحقق: في ظ قال أبو العلاء : ومن روى "أزجى" فهو من أزجى الأمر إذا أنجزه ، ولا ينبغي أن يعدل عن "أنجى" لأن الزاي جديرة بأن تكون مصحفة[2].

وقال أبو تمام: تجثو القيام به صُغْراً على الركب

قال المعري في شرح البيت: والمعنى: أن القوم يجثون على الركب لثقل ما حملوه من أمر الحرب. ولم يتكلم في "صغراً" وأقرها ونحن نقرها معه لمناسبة معنى البيت ، غير أن المحقق أورد لفظاً آخر في بعض النسخ وهو "صعراً" بعين مهملة وأورد أنها فسرت بقوله: "متكبرين" كما أورد كلاماً للصولي يروي فيه "صغراً" ويصفه بأنه تصحيف[3]. ولكنا لا نوافق على

1 - ديوان أبي تمام ١/٦٨ ، هامش (٤).
2 - المصدر نفسه ١/٦٨ ، هامش (٤).
3 - المصدر نفسه ١/٧١ ، هامش (١).

"صعراً" بالعين المهملة ، ونقر "صغراً" بالغين المعجمة ؛ لمناسبة حال المحاربين — وخاصة المنهزمين-.

وقال أبو تمام: إن كان بين صروف الدهر من رحم ... البيت
قال المحقق: وقال ابن المستوفي: وفي نسخة "إن كان بين صروف الدهر" والذي أراه أن "مرور الدهر" أحسن ؛ لأن النصر في بار وعمورية ليس من صروف الدهر بل من حسناته[1]. ولا أرى مانعاً من رواية "صروف الدهر" لأنها وإن كانت من حسنات الدهر على المسلمين فهي من صروفه وكرباته على الروم والمشركين ، كما قال أبو تمام قبل ذلك: أنتهم الكربة السوداء سادرة ....

وقال أيضاً:

أبقيت جد بني الإسلام في صعد والمشركين ودار الشرك في صبب

هذا ، وهناك اختلاف في الروايات لم يترتب عليه تخطئة أبي تمام ، وإنما ترتب عليه اختلاف في تفسير المعنى ، والمعنى محتمل للتفسيرات المختلفة ، وذلك مثل قوله: إذا غودرت وحشة الساحات والرحب.
قال المعري: "وحشة" أي موحشة الساحات ، وسمعت بعض من كان يتقن هذا الديوان من رؤساء الكتاب ينشد "وخشة الساحات" بالخاء ،

1 - ديوان أبي تمام ٧٣/١ ، هامش (٢).

ويذهب إلى معنى الخراب ووقوع بعضها على بعض ، من قولهم: أوحشوا الشيء أي خلطوه ، ومنه الوخْش الدنيء من الرجال والأخلاط ، الواحد والجميع[1].

وقوله: والله مفتاح باب المعقل الأشب.

ويروي: "المقفل الأشب".

وقد لا يترتب على اختلاف الروايات شيء سوى تبديل الألفاظ فقط ، وهذا كثير في القصيدة ، مثل: أسود الغيل – رويت: أسود الغاب، بسكتة تحتها – رويت: خلفها ، عداك حر الثغور – رويت: حماك ، دار الشرك – رويت: دار الكفر ، جرثومة الدين – رويت: جرثومة الملك ، الراحة الكبرى – رويت: الراحة العظمى ...إلخ.

كما وردت خلافات للنقاد حول تفسير بعض الألفاظ ، واعتراض بعضهم عليها ، وردّ الآخر عليهم. وهي في النهاية تمثل وجهات نظر نقدية ذوقية بعيدة عن عيوب اللغة والأسلوب والمعاني ؛ وذلك مثل الاختلاف حول قول أبي تمام:

هيهات زعزعت الأرض الوقور به   عن غزو محتسب لا غزو مكتسب

قال أبو العباس بن عمار في ذكر أخطاء أبي تمام: ومتى رأي خليفة قط وصف بأنه يغزو احتساباً بغير اكتساب؟ إنما هذا يوصف به المطوعون من الغزاة ، ولا أعلم كيف قاده فهمه إلى هذا القول حتى قاله؟. و لم يعجب

---

1 - ديوان أبي تمام ١/٥١.

هذا الرأي ابن المستوفي فرد عليه قائلاً: وهو لا يكون مدحاً إلا على مـــا ذكره أبو تمام[1]. ونحن نرى رأي ابن المستوفي إذ المديح لا يكون وجيهاً إلا إذا كان غزو الممدوح لوجه الله.

ومثل قول أبي تمام: "بسكتة تحتها الأحشاء تضطرب" قال المرزوقي: رأيت بعضهم يقول ليس للسكتة تحت ، يعيبه بقوله "تحتـــها الأحـــشاء" وهذا جهل منه ؛ لأن الإشارة إلى آلة الكلام ، والسكوت والإلجـــام لا يتأتى إلا فيها ، وإذا كان كذلك فذكر المنطق والسكوت يشار بـــه إلى الفم ، وكذلك الضمير المتصل بـــ "تحت" يرجع إليه في الحقيقة[2].

ومثل هذه الاختلافات كثيرة في شعر أبي تمام وفي قصيدته البائية ، ومرجعها إلى كثرة الروايات والشروح واختلاف الذوق النقدي في فهـــم المعنى.

المحسنات البديعية:

ونرى من تمام القول أن نتعرض للمحـــسنات البديعيـــة في هـــذه القصيدة ، خاصة وأن أبا تمام اتهم بالإكثار منها وإفساد الشعر بها ، فقال

1 - ديوان أبي تمام ٦٦/١ ، هامش (١).
2 - المصدر نفسه ٦٧/١.

ابن المعتز: "إن حبيب بن أوس الطائي من بعدهم (من بعد الشعراء) شغف به حتى غلب عليه وتفرع فيه وأكثر منه فأحسن في بعض ذلك وأساء في بعض وتلك عقب الإفراط وثمرة الإسراف وإنما كان يقول الشاعر من هذا الفن البيت والبيتين في القصيدة وربما قرئت من شعر أحدهم قصائد من غير أن يوجد فيها بيت بديع وكان يستحسن ذلك منهم إذا أتى نادراً ويزداد حظوة بين الكلام المرسل ، وقد كان بعض العلماء يشبه الطائي في البديع بصالح بن عبد القدوس في الأمثال ويقول لو أن صالحاً نثر أمثاله في شعره وجعل بينها فصولاً من كلامه لسبق أهل زمانه على مد ميدانه. وهذا أعدل كلام سمعته في هذا المعنى[1].

واتهمه الآمدي بفساد الشعر نتيجة الإكثار من البديع ، فقال: "تبع مسلم بن الوليد هذه الأنواع (أنواع البديع) ، ثم لم يسلم مع ذلك من الطعن حتى قيل: إنه أول من أفسد الشعر ، ثم اتبعه أبو تمام واستحسن مذهبه وأحب أن يجعل كل بيت من شعره غير خال من بعض هذه الأصناف فسلك طريقاً وعراً واستكره الألفاظ والمعاني ففسد شعره وذهبت طلاوته ونشف ماؤه[2] ".

---

1 - البديع – عبد الله بن المعتز صـ٢٢١ – تحقيق: اغناطيوس كراتشتوفسكي – لندن ١٩٣٥م.

2 - الموازنة للآمدي جـ١ صـ١٧ ، ١٨ – تحقيق: السيد محمد صقر – دار المعارف بمصر – الطبعة الثانية ١٩٦١م.

وهذا ظلم بيّن وحكم جائر من الآمدي على شعر أبي تمام ، إذ ليس كل شعره يتصف بهذه الصفات ، كما أن معظم البديع الــذي جــاء في شعره لم يكن سبباً في فساده ، بل كان سمة من سمات الجودة ، وعلامــة بارزة عرف بها أبو تمام في تاريخ الشعر العربي.

وعلى الرغم من أن الآمدي أطلق هذا الحكم على لسان أصــحاب البحتري إلا أنه يوافقهم ضمناً ؛ لأنه يذهب مذهب أصحاب الطبع كما اتضح في كثير من مواقفه في كتابه.

فالنقاد يعدون أبا تمام أول من اتخذ هذا الفن مذهباً له ، ولــست "أرى ذلك عيباً ، فهذا يدل على قيمة شعر أبي تمام وروعته ، واختلاف اللغويين والنقاد والأدباء حول فهم هذا الشعر دليل على عمقه وإبداعه ، وليس قصوراً في الشاعر وشعره[1] ".

ويصف القاضي الجرجاني شعر أبي تمام بالضعف والغثاثة — خاصة — إذا تتبع البديع فيقول: "وما تكاد قصيدة من شعره تسلم من أبيــات ضعيفة ؛ وأخرى غثة ، لاسيما إذا طلب البديع وتتبع العويص[2] ".

---

1 - مآخذ القاضي الجرجاني على أبي تمام في كتاب الوساطة ، للمؤلف صـ٣١ ، هــديل للنشر والتوزيع — الزقازيق — الطبعة الأولى ١٤١٩هـ (١٩٩٩م).

2 - الوساطة ، القاضي الجرجاني صـ٦٩ ، ٧٠ — تحقيق وشرح: محمد ابو الفضل إبراهيم وعلى البجاوي — المكتبة العصرية — صيدا — بيروت (ب.ت).

لعب أبو تمام على وتر المحسنات البديعية ، واستطاع أن يوظفها بمهارة فائقة في خدمة المعاني وتجميل الصور التي يعرضها في قصيدته ، فخرجت عن طوق الزخرف اللفظي ودخلت في الإيقاع الموسيقي ، وكانت من لوازم الرسم الفني الذي أتقنه أبو تمام في صياغة لوحاته صياغة تنتقل بالمتلقي من فن إلى فن ومن لون إلى لون حتى تستقر في مخيلته الصورة التامة التي أرادها الفنان المبدع لكل لوحة لعبت فيها أصابعه.

و لم يقتصر على لون دون لون من المحسنات ، وإنما شكل صوره بمختلف المحسنات ، بل كان يحشد في البيت الواحد ألواناً مختلفة من المحسنات البديعية ، وهي مع كثرتها لم تنقص من قدر المعاني أو الصور كما يفعل كثير من الشعراء الذين ليس لهم خبرة أبي تمام في استخدام هذه الألوان الجمالية.

ففي قوله: "في حده الحد بين الجد واللعب" لونان من المحسنات ، اللون الأول جناس مشتق في قوله: حده الحد ، وجناس مصحف في قوله: الحد، الجد – واللون الثاني: طباق في قوله: الجد واللعب.

وفي قوله:

بيض الصفائح لا سود الصحائف في متونهن جلاء الشك والريب

جناس مقلوب في قوله: الصفائح ، الصحائف – كما أن هناك تطابقاً في قوله: بيض ، سود. وفي البيت لمحة فنية أخرى ، وهي تكراره لفظين يظن كثير من النقاد أنهما بمعنى واحد. وهما: الشك والريب حتى قال التبريزي:

والشك والريب واحد فكرّر لاختلاف اللفظين. ولكـــن علمـــاء اللغـــة يفرقون بين اللفظين ، فالريب أقوى من الشك.

ومن المواطن التي استخدم فيها الطباق قوله:

وحـــسن منقلـــب تبـــدو عواقبـــه جاءت بشاشته مـــن ســـوء منقلـــب

فقد طابق بين حسن ، سوء ، وزاد المعنى جمالاً وسوقه المعنى على صورة الحكمة القائلة: مصائب قومٍ عند قومٍ فوائدُ.

ومن الأبيات المثقلة بالجناس ، قوله:

عداك حر الثغور المستـــضامة عـــن برد الثغور وعن سلـــساها الحـــصب

فقد جمع في البيت لونين من المحسنات ، فطابق بين (حر ، برد) ، وجانس بين الثغور الأول وهو الموضع الذي يخاف أن يأتى منه ، والثغور الثانيـــة من ثغر الإنسان ، وما أجمل التذييل في نهاية البيـــت (وعـــن سلـــساها الحصب) ليوافق برد الثغور التي تركها من أجل الـــدفاع عـــن الثغـــور الإسلامية.

وما أجمل المشاكلة اللفظية في قوله:

تسعون ألفاً كآساد الشرى نـــضجت أعمارهم قبل نضج الـــتين والعنـــب

فإنه لما عبر عن نضج الفاكهة شاكل بلفظ النضج واستعاره للأعمـــار ، كما استعيرت للجلود في قوله تعالى: "كلما نضجت جلودهم بـــدلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب".

ومن الأبيات التي حشد فيها طباقان قوله:

ومغضب رجعب بيض السيوف بـــه   حَيَّ الرضا من رداهم ميت الغــضب

فطابق بين الحيّ والميت والرضا والغضب.

ومن الأبيات التي نوّع فيها بين المحسنات البديعية قوله:

بيض إذا انتضيت من حجبها رجعت   أحق بالبيض أتراباً من الحجب

قال الصولي: وفي البيت تجنيس وتصدير ، فـــالتجنيس بـــيض وبـــيض ، والتصدير ردّ العجز على الصدر ، قال في النصف الأول حجبها ثم قفـــى بالحُجب[1].

فاستخدم أبي تمام لهذه المحسنات لم يكن تلاعبـــاً بالألفـــاظ علـــى حساب المعنى ، وإنما جاءت خدمة للمعاني والصور كما رأينا ، مما يـــدل على عبقرية أبي تمام وشاعريته التي ملك ناصيتها فاستخدمها في تجويـــد شعره وإتقان معانيه.

---

1 - ديوان أبي تمام ٧٢/١.

لغة المتنبي وأسلوبه:

أتقن المتنبي الآلة اللغوية من نحو وصرف واشتقاق – إتقاناً يدل على تمكن ووعي بأدوات الشعر ومقوماته ، فنراه كثيراً ما يفخر بهذا الإتقـــان اللغوي في شعره ، كما في قوله:

أنام ملء جفـــوني عـــن شـــواردها ويـــسهر الخلـــق جراهـــا ويختـــصم

وتدلنا الروايات الكثيرة على بصره بالشعر ومراجعة اللغويين وإحالتهم إلى مصادر اللغة ليصححوا مفاهيمهم ويدعوه وعبقريته ، ونراه في مـــواطن كثيرة يسأل عن معنى كلمة فيقول لسائله بخيلاء: اسألوا هذا ويـــشير إلى ابن جني صديقه وشارح شعره.

ولهذا كان المتنبي جديراً بالصمود أمام كبار العلمـــاء والأدبـــاء في حلقة سيف الدولة – وما أكثرهم – وقد كان من هؤلاء : "أبو فراس ، ومعلمه ابن خالويه ، وأبو الفرج الببغاء ، والوأواء الدمشقي ، وأبو بكـــر وأبو عثمان الخالديان ، وأبو الطيب اللغوي ، والسري السرفاء ، وأبـــو علي الفارســـي ، والفـــارابي ، والأصـــفهاني – صـــاحب الأغـــاني – وغيرهم[1] ".

---

1 - أمراء الشعر في العصر العباسي صـــ٣٣٢.

وحاول كثير من الأدباء والشعراء طمس محاسنه ، والظهور عليه ، إلا أنهم فشلوا في ذلك ، واستطاع أن يبذهم جميعاً ، وأن يعلو ذكـــره في سماء العربية ؛ فأخمد ذكرهم ، ومحا أثرهم.

وجعل بعض النقاد هذا الجمع الحافل في مجلس سيف الدولة سبباً في حشد قريحة المتنبي وتجويد شعره في سيف الدولة ، يقول: "إنه كان هناك في محفل حافل بالعلماء والشعراء والمنتقدين ، ولذلك لم يكن بـــد مـــن حشد القريحة في مدح سيف الدولة والإكثار مـــن التـــنطس في ألفاظـــه ومعانيه"[1].

ونحن لا نرى هذا هو السبب الوحيد في هذه الظاهرة ، وإنما يضاف إليها أسباب أخرى ، منها تمكنه اللغوي ، وعبقريتـــه الفـــذة ، وقريحته الملهمة ، ونشأته العربية الخالصة. وعلى كل حال فليس معنـــا في هذه القصيدة ما يوحي بشذوذ الألفاظ أو غرابتها أو تنطسها كما ادعى اليازجي.

وفّق المتنبي في إلباس الألفاظ ما يناسبها من المعاني بعد أن أتى بهـــا عربية صحيحة فصيحة خالية من الركاكة والسفسفة ، فعبر بذلك عـــن

---

1 - رسالة اليازجي في ذيل شرح ديوان المتنبي صـــ٦٦٦ نقلاً من: أمراء الشعر العـــربي في العصر العباسي صـــ٣٦٠.

روح العربي الأصيل الذي غاص على الألفاظ في بطون الكتب يستخرجها بعقله ، ويعيها في ذاكرته ، ليخرجها وقتما يريد إبداعاً وبراعة وإتقاناً.

ونراه يحشد جمعاً من الألفاظ القوية الصاخبة التي تعبر عن قوة سيف الدولة وقوة الجيش واحتدام المعركة مثل: العزم ، العزائم ، سيف الدولة ، يكلف الجيش همه ، الجيوش الخضارم ، الضراغم ، سلاحه ، أسيافه والقوائم ، سقتها الجماجم ، القنا يقرع القنا ، موج المنايا متلاطم، جثث القتلى عليها تمائم ، رددها بالخطي ، تفيت الليالي كل شيء أخذته، ذا الطعن أساس لها ودعائم ، يجرون الحديد ، سروا بجياد ما لهن قوائم ، خميس ، زحفه ، تجمع فيه كل لسن وأمة ، لله وقت ذوب الغش ناره ، تقطع ، الدرع والقنا ، فرّ ، الأبطال ، تجاوزت ، ضممت ، بضرب أتى الهامات ، صار إلى اللبات ، حقرت الردينيات ، السيف ، الرمح ، الفتح الجليل ، مفاتيحه البيض ، نثرتهم ، تدوس بك الخيل ، العتاق الصلادم ، إذا زلقت.

ونلاحظ هنا ذكره ألفاظ الخيل وصفاتها من الجانبين خلافاً لأبي تمام الذي لم يذكر لفظة واحدة عن الخيل ، وهذا يؤكد ما ذهبنا إليه من أن المتنبي كان مولعاً بوصف الخيول في المعركة والإشادة بها ، وجعلها عاملاً مهماً من عوامل النصر ، بل كان يجعل الخيل وحدها أبطالاً للمعارك كما حدث في وصفه معارك "سيف الدولة مع برداس فوكاس سنة ٣٤٢هـ فقدم الصورة الدقيقة البارعة لسيف الدولة غازياً ولخيله مندفعة إلى

المعركة ، وكأن الخيل وحدها تحارب. لقد جعل المتنبي الخيـل وحـدها أبطالاً لهذه المعركة المجيدة. وهذه ظاهرة جديدة في الشعر العربي ما كانت لتنبعث إلى الحياة لولا بسالة سيف الدولة ، فانفعل المتنبي وتأثر بمـا رآه ، فزودته شاعريته الفذة بهذا اللون الجديد من شعر الحرب الذي جعل فيـه الخيل فرساناً وأبطالاً ، وجعل الأبطال مجرد مساعدين أو جنوداً خلـف الصفوف[1] ".

وعندما يمدح صاحبه سيف الدولة ويفخر بانتصاراته يختار له مـن الألفاظ ما يشع حيوية وفخراً وإعزازاً ، مثل: سيف الدولـة ، لكنـك التوحيد للشرك هازم ، وجهك وضاح ، ثغرك باسم ، وقفـت ومـا في الموت شك لواقف ، تجاوزت مقدار الشجاعة والنهى ، مغنوماً نجا منـك غانم ، تشرف عدنان به لا ربيعة ، تفتخر الدنيا به ، أيها السيف الـذي ليس مغمداً ، راجيك والإسلام أنك سالم ، لم لا يقي الرحمن حديك.

وننتقل مع المتنبي إلى صورة أخرى من قصيدته أو قل لوحته الفنية ، وهي صورة الدمستق المنهزم الهارب بحياته تاركاً كل شيء وراءه ، فنراه يختار لهذه اللوحة ألفاظاً كاريكاتورية مضحكة ، تجعلنا نشمئز من هـذه الشخصية الجاهلة التي لا تعتبر بما يحدث لها ، يقول: ذا الدمستق مقدم ، قفاه على الإقدام للوجه لائم ، مضى يشكر الأصحاب في فوته الظـبى ،

---

1 - سيف الدولة – د. مصطفى الشكعة صـ٢٠٧ ، ٢٠٩.

ينكر ريح الليث حتى يذوقه ، عرفت ريح الليوث البهائم ، يسر بما أعطاك لا عن جهالة.

و لم ينس المتنبي ذكر الألفاظ النحوية في قصيدته ، لكنها قليلة على كل حال ، جاءت في قوله (فعلاً مضارعاً مضى قبل أن تلقى عليه الجوازم) وهي ألفاظ ضربها لمعنى العزيمة والمضاء في الأمر كما قال معظم شراح البيت. و لم يتكلف المتنبي الشذوذ في قصيدته ، وهو مذهب اتهمه به كثير من النقاد ، فقال عنها الثعالبي: "ومنها (المآخذ) عسف اللغة العربية والإعراب واستعمال الغريب الوحشي والركاكة والسفسفة بألفاظ العامة والسوقة"[1]. وقال عنها الدكتور / شوقي ضيف: "ويحس قارئ ديوانه أنه لم يترك شاذة نحوية إلا وتكلفها في قصائده ونماذجه ، وكان يجنح إلى المذهب الكوفي ويعمم شوارده في شعره[2] ".

و لم نجد شيئاً من هذه المخالفات في قصيدة المتنبي التي قالها في الحدث مما يؤكد لنا أن هذا المذهب الذي اتهم به لم يكن عاماً في كل شعره ، وإنما كانت له مواطن أدته إليها ظروف خاصة.

1 - يتيمة الدهر ١٨٤/١ وما بعدها.

2 - الفن ومذاهبه في الشعر العربي صـ ٣١٠.

وأما أسلوب المتنبي في قصيدته ، فقد كان قوياً صحيحاً سالماً من التعقيد والالتواء – على الرغم من استخدامه الفصل بين العامل والمعمول في كثير من أبياته – وعبر الأسلوب عن معاني القصيدة تعبيراً جيداً.

ونلاحظ تركيز المتنبي بصورة واضحة على الأسلوب الخبري منذ بدء قصيدته: على قدر أهل العزم تأتي العزائم ، تأتي على قدر الكرام المكارم ، تعظم في عين الصغير صغارها ، يكلف سيف الدولة الجيش همه، يفدي أتم الطير ، سقتها الغمام الغر ، سقتها الجماجم ، كان بها مثل الجنون ، طريدة دهر ، تفيت الليالي ، حاكموها والمنايا حواكم ، أتوك يجرون الحديد ، خميس بشرق الأرض ، تجمع فيه كل لسن وأمة ، تقطع مالا يقطع الدرع والقنا ، وقفت وما في الموت شك ، تمر بك الأبطال ، ضممت جناحيهم ، حقرت الردينيات ، نثرتهم ، تدوس بك الخيل ، تظن فراخ الفتخ ، فجعته بابنه ، مضى يشكر الأصحاب ، يفهم صوت المشرفية ، يسر بما أعطاك ، تشرف عدنان.

فهذه الأساليب الخبرية ظاهرة جديرة بالوقوف عندها في هذه القصيدة ، وكأني بالمتنبي يسرد واقعة حربية على خريطة أمام قائده الأعلى – كما نلاحظ مثيلاتها في أيامنا هذه – وهو يمسك بالعصا ويشير إلى الواقعة ويحدد معالمها على الخريطة ، ويشير إلى تقدم قوات العدو ويصف عددها وعتادها ، ثم ينتقل إلى النقطة التي تحدد مكان المعركة ، ويستمر في وصف سير المعركة وتلاحم الفريقين ، ولا ينسى أن يشير إلى هول

الموقف ومفاجأة النهاية التي دحرت الأعداء على الرغم من كثرة العـــدد والعتاد ، وينهي شرحه بتهنئة هذا البطل المغوار الذي كلل جهود جيشه بالنصر وبناء القلعة تحت معترك المنايا وتلاطم أمواج الـــسيوف والهـــام. ولاسيما أن القصيدة أنشدت في يوم المعركة في الحدث ، وهذا يؤكد ما قلناه.

ومع التركيز على هذا اللون الخبري إلا أنه نوّع فيه وشكّل منه عدة أساليب بلاغية ، كالابتداء بالجملة الاسمية والفعليـــة وشـــبه الجملـــة ، وكاتباع أسلوب القصر بالتقديم والتأخير ، والتعبير بالماضي والمـــضارع ، والمبني للمعلوم والمجهول والتأكيد بالاسمية وحروف التأكيد ، وذلك يدل على براعته في تلوين الأسلوب الواحد واتخاذ ألوانه المختلفة ضروباً للتعبير عن المعنى والصورة.

واستخدم المتنبي بعض الأساليب الإنشائية في التعبير عـــن مواقـــف حسنت فيها هذه الألوان من الأسلوب الإنشائي ، فاستخدم الاســـتفهام التعجبي في موطن التهويل والتعظيم لما حدث للقلعة ، فيستفهم من الجماد استفهامه من العاقل في قوله:

هل الحدث الحمراء تعـــرف لونهـــا وتعلـــم أي الـــساقيين الغمـــائم؟

وهو أسلوب تعجب وسخرية مما آلت إليه هـــذه القلعـــة المنيعـــة مـــن اصطباغها باللون الأحمر وريّها بجماجم القتلى.

ويستخدم الأسلوب ذاته في السخرية والاحتقار للبطل المزعـــوم – الدمستق – ليخرج بنتيجة حقيقية من واقع أرض المعركة وهـــي جهلـــه وغروره الذي ألقيا به في معترك لا قبل له به ، يقول:

أفي كل يـــوم ذا الدمـــستق مقـــدم قفاه علـــى الإقـــدام للوجـــه لائـــم؟

أينكر ريح الليـــث حـــتى يذوقـــه وقد عرفت ريح الليـــوث البـــهائم؟

ويستخدم أسلوب الاستفهام مرة ثالثة ولكـــن علـــى ســـبيل الإقـــرار والاعتراف بفضل هذا البطل ، وطلب المعونة له من الله – عز وجـــل – يقول:

ولِمْ لا يقي الرحمن حديك مـــا وقـــى وتفليقه هـــام العـــدا بـــك دائـــم؟

ونراه يستخدم أسلوب الشرط والتعجب والنداء ويوظفها فيما تصلح لـــه من المواقف ، فيعبر بها أحسن تعبير في صورة بديعة مشرقة.

يقول مفتخراً بعزيمة سيف الدولة مستخدماً الشرط:

إذا كان ما تنويـــه فعـــلاً مـــضارعاً مضى قبل أن يلقـــى عليـــه الجـــوازم

ويستخدم الشرط في حكمة بالغة تدل على علو همة الممدوح ، فيقول:

ومن طلب الفـــتح الجليـــل فإنمـــا مفاتيحه البيض الخفـــاف الـــصوارم

ويقول:

إذا زلقـــت مـــشيتها ببطونهـــا كما تتمـــشى في الـــصعيد الأراقـــم

ويستخدم أسلوباً للتعجب يصف به هول الموقف وثبـــات الـــشجعان ، يقول:

فللـــه وقـــت ذوب الغـــش نـــاره فلـــم يبـــق إلا صـــارم أو ضـــبارم

ولا يخفى تركيب النفي مع التعجب وما أحدثاه من وصف الهول وشدة الموقف! ويستخدم أسلوب النداء مركباً تركيباً رائعاً مع أداة الاستفتاح وإتباعه بالموصول وصلته وشفعه بالدعاء في مزج عجيب مؤثر، فيقول:

ألا أيها السيف الذي ليس مغمداً ولا فيه مرتاب ولا منك عاصم

هنيئاً لضرب الهام والمجد والعلى وراجيك والإسلام أنك سالم

ولم يقع في قصيدة المتنبي ما وقع في قصيدة أبي تمام من كثرة في اختلاف الروايات مما كان سبباً في كثرة المآخذ على أبي تمام، وإنما وقع الشيء القليل وكان سببه التصحيف باعتراف صاحب القصيدة.

قال المتنبي:

تفيت الليالي كل شيء أخذته وهن لما يأخذن منك غوارم

فالرواية الصحيحة "أخذته" بتاء الخطاب – يخاطب سيف الدولة. وقال التبريزي وابن القطاع: من رواه بالنون أفسد المعنى، قال ابن القطاع: قال لي شيخي محمد بن البراء التميمي: قال لي صالح بن رشد: قرأت على المتنبي أخذنه بالنون فقال: صحفتَ يا أبا علي، قلت: وكيف قلت؟ فقال: قلت أخذته – بالتاء – لأني لو قلت بالنون لأفسدت المعنى والإعراب ونقضت قولي في آخر البيت، وذلك أن تفيت يتعدى إلى مفعولين، فإذا جعلت "الليالي" فاعله ونصبت "كل شيء" لم يكن مفعولاً ثانياً ففسد الإعراب، وإذا قلت بالتاء جعلت "الليالي" مفعولاً أولاً و "كل شيء" ثانياً. وأما فساد المعنى فلو جعلت "الليالي" الفاعلة لجعلتها

تفيت كل شيء ولا تغرمه ، ثم نقضته بقولي: "هن لمـــا يأخـــذن منـــك غوارم" وإنما المعنى" تُفيت يا سيف الدولة الليالي كل شيء أخذته منها فلا تغرمه لها ، وهن غوارم لك ما يأخذن فصحّ المعنى[1].

وأما اختلاف الأذواق في تفـــسير المعـــاني فـــشيء وارد في كـــل شعر – خاصة إذا كثر الشراح – وهذا الاختلاف لا ينقص من قدر اللغة ولا الأسلوب بل ولا المعنى نفسه ، ولنضرب لهذا مثلاً واحـــداً ، قـــال المتنبي:

إذا برقوا لم تعـــرف البـــيض منـــهم ثيـــاهم مـــن مثلـــها والعمـــائم

قال بعض الشراح: إذا برقوا عند وقع الشمس عليهم لم تتميز الـــسيوف منهم ، لأن أبداهم مغطاة بالدروع ورؤوسهم بـــالخوذ ، وكلـــها مـــن الحديد، فإذا برقت السيوف برقت هذه معها.

وقال العكبري: وسمعت بعضهم – وكان شيخاً يقرأ عليه هذا الديوان – يقول: أخطأ أبو الطيب ، كيف ذكر العمائم والعمائم للعرب وليـــست للروم ، فكيف جعلها للروم ، فضحكت من قوله وقلت له: الـــضمير في "مثلها" إلى أين يعود؟ أليس إلى البيض ، وهي السيوف؟ فلم يـــدر مـــا قلت[2].

---

1 – شرح ديوان المتنبي ٩٧/٤ ، ٩٨.

2 – المصدر نفسه ٩٩/٤ ، ١٠٠.

المحسنات البديعية:

ومما يتصل باللغة والأسلوب الحديث عن المحسنات البديعية وكيفية استخدام الشاعر لها ، والقدر الذي نهله منها ، والصورة التي استخدمها بها ومقدار جودته وإساءته فيها. وقد أخذ على المتنبي فيما أخذ "تكرير اللفظ في البيت الواحد من غير تحسين"(١).

ولكنه في هذه القصيدة قد استعان ببعض المحسنات البديعية ليبرز معانيه وصوره في ثوب مشرق رشيق ، فاستخدم الجناس والمقابلة وغيرها من ألوان البديع. ولكنه لم يبلغ درجة أبي تمام في إتقان هذا الفن والتلاعب به كما تلاعب به أبو تمام ، فمما استخدمه المتنبي الجناس المشتق في مطلع قصيدته في قوله:

على قدر أهل العزم تأتي العزائم وتأتي على قدر الكرام المكارم

فجانس بين العزم ، العزائم وبين الكرام ، المكارم. كما جانس بين الصغير، صغارها وبين العظيم ، العظائم. ولكنه لا يرقى إلى درجة الجناس الذي تلاعب به أبو تمام في مطلع قصيدته والذي أشرنا إليه من قبل.

واستخدم الطباق في قوله: "نسور الملا أحداثها والقشاعم" فإن الأحداث: الشابة ، القشاعم : الطويلات العمر ، وجاء الطباق ليزيد

1 - يتيمة الدهر ١/١٨٥.

المعنى ويشير إلى تجمع النسور واستعدادها لافتداء سلاح سيف الدولـــة ، وما كان المعنى ليتم بدون هذا الطباق.

ومن المحسنات البديعية التي استخدمها: المقابلة في قوله:

وتعظم في عـــين الـــصغير صـــغارها وتصغر في عـــين العظـــيم العظـــائم

فقابل بين الشطر الأول والشطر الثاني ، فاكتملت الصورة ، وتم المعـــنى الذي أراده من وضع الناس في أماكنهم التي يستحقونها.

ومن المحسنات البديعية ، التورية في قوله:

إذا كان ما تنويـــه فعـــلاً مـــضارعاً مضى قبل أن تُلقـــى عليـــه الجـــوازم

فعبارة بعض الشراح: إذا أردت أن تفعل أمراً وقع ذلك الفعل لوقته فصار ماضياً قبل أن تكون فيه مهلة لدخول الجازم. وقال العكبري: يريد: مـــا أسعده الله به وأظهره له من سعده في قصده ، فإذا كان ما ينويـــه فعـــلاً مستقبلاً – ولفظ المستقبل يقع على الدائم الذي لم ينقطع وعلى المتـــأخر الذي لم يقع – صار ذلك الفعل ماضياً بوقوعه منه ، ومتصرفاً بتمكنه منه قبل أن تلحقه الجوازم فتثبته فيما لم يجب وتدخل عليه فتخلصه فيمـــا لم يقع. وقال العكبري: والبيت بناه على التورية[١].

1 - شرح ديوان المتنبي ٩٨/٤.

ومن الألوان البديعية المقابلة في قوله: "فما مات مظلوم ولا عـــاش ظالم" فقابل بين موت المظلوم وعيش الظالم في براعة ودقة ، لأنه قـــصد بهذه المقابلة سلامة القلعة (ما مات مظلوم) وموت الروم (ولا عاش ظالم) فجاءت المقابلة في موقعها من الجمال والروعة.

كما طابق بين الشرق والغرب في قوله: "خمـــيس بـــشرق الأرض والغرب زحفه" فوقع الطباق موقعه من التعبير عن كثرة عـــدد الجـــيش وامتداده من الشرق إلى الغرب ؛ ليعطي المتلقي صورة عن هذا الجـــيش الجرار الذي مني بالهزيمة وذاق مرارة الموت.

وطابق – في سخرية مريرة – بين الوجه والقفا ، وهما متـــضادان وأبرز بهذا التطابق صورة ساخرة مضحكة لقائد الروم المنهزم ، الذي فرّ بعدما شبع صفعاً على قفاه ، مما جعل القفا يصرخ ويستغيث لائماً هـــذا الوجه الجامد الذي لم يعتبر بالتجارب ، فيقع فيما وقع فيه قبل ذلـــك ، وهذا في قوله:

أفي كل يـــوم ذا الدمـــستق مقـــدم   قفاه علـــى الإقـــدام للوجـــه لائـــم

و لم تكن الأعضاء لتنطق لولا هذه اللوحة البديعة التي استعان راسمها بلون من ألوان البديع الجميلة ، مع حسن استخدام لها ، وتوظيفها في توضـــيح الصورة ووضعها بين ما يناسبها من الألوان.

الطبع والصنعة في القصيدتين

اختلف النقاد في تعريف المطبوع والمصنوع من الشعراء ، كما اختلفوا في تحديد أمارات المطبوع والمتكلف ، فابن قتيبة يفرق بين المطبوع والمتكلف بقوله: "ومن الشعراء المتكلف والمطبوع: فالمتكلف هو الذي قوّم شعره بالثقاف ، ونقّحه بطول التفتيش ، وأعاد فيه النظر بعد النظر ، كزهير والحطيئة. وكان الأصمعي يقول: زهير والحطيئة وأشباههما من الشعراء عبيد الشعر ؛ لأنهم نقحوه ولم يذهبوا فيه مذهب المطبوعين ، وكان الحطيئة يقول: خير الشعر المنقح المحكك ، وكان زهير يسمي كبرى قصائده الحوليات[1] ".

وهذا الرأي خطير في عملية الإبداع ، إذ إنه يحجر على الشاعر تثقيف شعره وتهذيبه ، وهذا ما لم يقل به أحد من النقاد الموضوعيين ، ولم يثبته الواقع الإبداعي إلا في حالات قليلة عرفت بالارتجال. ويقترب الأصمعي من رأي ابن قتيبة في التفرقة بين المطبوع والمتكلف في قوله: "زهير بن أبي سلمى والحطيئة وأشباههما عبيد الشعر ، وكذلك كل من يجوّد في جمع شعره ويقف عند كل بيت قاله وأعاد فيه النظر حتى يخرج أبيات القصيدة كلها مستوية في الجودة[2] ".

---

1 - الشعر والشعراء ، لابن قتيبة ١/٢٢ ، ٢٣ – دار الثقافة – بيروت (ب.ت).

2 - البيان والتبيين للجاحظ ٢/٢١٩ ، تحقيق: حسن السندوبي–دار إحياء العلوم – بيروت لبنان – الطبعة الأولى ١٤١٤هـ (١٩٩٣م).

والحكمان خطأ ولا يخلوان من "اضطراب في الفهـــم وتكلـــف في الاستنتاج ؛ لأنهما لم يميزا بين تهذيب الشعر وتنقيحه ومراجعته ، حـــتى يستقيم معوجه ويسلم بناؤه ، وبين التكلف الذي يعمد فيه صـــاحبه إلى مراغمة طبعه على أن يقول مالا يحس أو ينطق بما لا يشعر[١] ".

ويوضح ابن قتيبة صفة الشاعر المطبوع فيقول: "والمطبـــوع مـــن الشعراء من سمح بالشعر واقتدر على القوافي ، وأراك في صدر بيته عجزه، وفي فاتحته قافيته ، وتبينت على شعره رونق الطبع ووشي الغريـــزة ، وإذا امتحن لم يتلعثم و لم يتزحر[٢]".

ويعود فيقرر علامات المتكلف من الشعر وهي "أن ترى البيت فيه مقروناً بغير جاره ، ومضموماً إلى غير لفقه ، ولذلك قال عمر بن لجـــأ لبعض الشعراء: أنا أشعر منك ، قال: وبم ذلك؟ فقال: لأني أقول البيـــت وأخاه ، ولأنك تقول البيت وابن عمه[٣]". ومن الملاحظ أن ابـــن قتيبـــة "خلط في كل قسم من القسمين اللذين يرد الشعر إليهما بـــين أمـــرين مختلفين كل الاختلاف:

---

1 - النقد الأدبي في أطوار تكوينه عند العرب – د. محروس منشاوي الجالي صـــ٩٨ – دار الطباعة المحمدية بالأزهر – القاهرة – الطبعة الأولى ١٣٩٩هـــ (١٩٧٩م).

2 - الشعر والشعراء لابن قتيبة ٣٤/١.

3 - المصدر نفسه ٣٤/١.

١ – بين التكلف ، وبين تقويم الشعر وتثقيفه بطول التفتيش وإعادة النظر بعد النظر كما كان يفعل زهير والحطيئة.

٢ – بين الطبع والارتجال حتى لكأنه يظن أن الشعر المطبوع هو الشعر المرتجل وفي الأمثلة التي يوردها ما يدل على ذلك[1]".

وهناك فرق كبير بين تثقيف الشعر وتنقيحه وبين الارتجال ، فالارتجال يكون على وجه سريع دون إعداد أو ترتيب ، ولم يتمكن الشاعر عند الارتجال من مراجعة شعره أو تنقيحه ، بل إن النقاد فرقوا بين الارتجال والبديهة ، يقول علي بن ظافر في الفرق بينهما: "الارتجال هو أن ينظم الشاعر ما ينظم في أوحى (أسرع) من خطف البارق ، واختطاف السارق ، وأسرع من التمام العاشق ، ونفوذ السهم المارق ، حتى يخال ما يعمل محفوظاً ، أو مرتباً ملحوظاً ، من غير حاجة إلى الكتابة ، ولا إلى تعلل بتثقيفه ... والبديهة أن يترل عن هذه الطبقة قليلاً ، ويفكر مقصراً لا مطيلاً ، فإن أطال ذو البديهة الفكرة انعكست القضية ، وخرجت من حد البديهة إلى الروية[2]".

---

1 – النقد المنهجي عند العرب – د. محمد مندور صـ٣٩ – دار نهضة مصر للطبع والنشر الفجالة – القاهرة (ب.ت).

2 – بدائع البدائة – علي بن ظافر صـ٨ – تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم – مكتبة الأنجلو المصرية – القاهرة ١٩٧٠م.

فالارتجال عملية صعبة جداً ولا تتأتى لكل الشعراء ، وكذلك البديهة مرحلة تالية للارتجال وكلاهما مختلف عن الروية والتنقيح ، ولـــذا فإن للشعر المرتجل سمات وخصائص تختلف عن الشعر المنقح[1].

ويعود ابن قتيبة فيبين علامات الشعر المتكلف ، ويصفه بأنـــه "وإن كان جيداً محكماً فليس به خفاء على ذوي العلم ، لتبينهم فيه مـــا نـــزل بصاحبه من طول التفكر ، وشدة العناء ، ورشـــح الجـــبين ، وكثـــرة الضرورات ، وحذف ما بالمعاني حاجة إليه ، وزيادة ما بالمعـــاني غـــنى عنه[2]".

وفرَّق النقاد أيضاً بين الصنعة والتصنع ، فعرفوا الصنعة بأنها "عمل قد يكون إبداعاً ، ويتأتى لمن حصل أدوات الفن وامتلك آلاته. والتصنع تكلف ، ففيه افتئات على الصنعة أو تورط فيها ، وكلاهمـــا لا يؤهـــل صاحبه لأن يعد من المبدعين ، وذوي الأصالة الفنية والصنعة لا تـــستغني عن الطبع ، فإنما ترجع القدرة في الصنعة والبراعـــة فيهـــا إلى الأصـــالة والصدق ، وهذان من الأمور التي تستند إلى الطبيعة والاستعداد. وليس في إمكاننا أن نتصور صنعة في الفن لا ترتد إلى حس مرهف وقلـــب حـــي وعقل نابض إلا أن تكون صنعة باهتة ، وقشور طلاء ، وعرضـــاً مـــن

1 - راجع سمات الشعر المرتجل في: الشعر المرتجل في كتاب "بدائع البدائة" بحـــث منـــشور بمجلة كلية اللغة العربية بالزقازيق – العدد السابع عشر ١٩٩٧م – للمؤلف.

2 - الشعر والشعراء ٣٢/١.

أعراض الجواهر ، وكل ذلك يزول بعد حين ، ولا يبقى إلا بمقدار اللذة منه ، وهي لذة موقوتة ، لا يقدر لها أن تعيش في أعماق الزمان[1]".

ووصف بعض النقاد أبا تمام بأنه صاحب صنعة في الشعر ، ووصفوا البحتري بأنه صاحب طبع ، كما أنهم اختلفوا في المتنبي بين الصنعة والتصنع والطبع ، وأدلى كل برأيه حسب ثقافته وذوقه وميله لمن يهواه من الشعراء[2].

وليس الشعراء متكافئين في الارتجال والبديهة ، فمنهم من يسهل عليه ومنهم من يمتنع ذلك أو يصعب حسب تمكنه من القول ، واستعداده الفطري لهذا الجانب من العبقرية ، وقد كان "أبو الطيب المتنبي كثير البديهة والارتجال ، إلا أن شعره فيهما نازل عن طبقته جداً[3]".

وأما أبو تمام فقال عنه الصولي إنه "يصنع الكلام ويخترعه ، ويتعب في طلبه حتى يبدع ، ويستعير ويغرب في كل بيت إن استطاع ... ولا يسقط معناه البتة ، وإنما يختل في الوقت لفظه ، فإذا استوى له اللفظ فهو الجيد من شعره النادر الذي لا تعلق به[4]".

---

1 - قضايا النقد الأدبي الحديث – د. محمد السعدي فرهود ص ٨٧ – دار الطباعة المحمدية بالأزهر – القاهرة – الطبعة الثانية ١٣٩٩هـ (١٩٧٩م).

2 - راجع الموازنة ، الوساطة ، الفن ومذاهبه في الشعر العربي للدكتور شوقي ضيف.

3 - العمدة ١/١٩٣.

4 - أخبار البحتري ، للصولي ص ١٦٥ ، ١٦٦ – تحقيق: صالح الأشتر – مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق ١٣٧٨هـ (١٩٥٨م).

وبعرض القصيدتين على ما سبق بيانه من تحديد الطبع ، التكلف ، الصنعة ، نستطيع أن نتبين أن الشاعرين جريا فيهما على الطبع الشعري ، وهو العبقرية والملكة التي تمتع بها كل منهما. فأبو تمام شاعر كبير ، ولا يستطيع أن يرد شعره إلا غافل أو متحامل ، وكذلك فإن المتنبي من شعراء العربية المرموقين الذين لهم باع طويل في سماء المجد الشعري والإبداع الفني.

ولم يثبت في التاريخ الشعري أن أبا تمام أنشد قصيدته (بائيته) ارتجالاً ، وإنما أنشدها بعد أن انتهى المعتصم من حربه ، وتم له فتح عمورية ، وأما عن "المدة الكاملة التي استغرقتها الحملة على عمورية ، فتحدد من تاريخ خروج المعتصم من سامراء في ٦ جمادى الأولى ٢٢٣هـ إلى إتمام الفتح في ١٧ رمضان ٢٢٣هـ أي أنها منذ بدايتها وحتى نهايتها قاربت أربعة أشهر ونصف[1]".

وتخبرنا المصادر كذلك بأن المعتصم احتفل بانتصاره احتفالاً عظيماً بعد أن أتم فتح عمورية ، وترك هذا الانتصار أثراً كبيراً في إسهام الشعراء والأدباء ، وكان أبو تمام من هؤلاء المعبرين عن هذا النصر العظيم.

---

1 - العلاقات السياسية بين الدولة البيزنطية والخلافة العباسية صـ٢١٣.

ويحدد الشيخ محمد الخضري يوم إنشاد القصيدة "بدخول المعتصم سامراء ، وكان دخوله إليها يوماً مشهوداً ، وامتدحه أبو تمام حبيب بن أوس بقصيدته المشهورة التي أولها:

السيف أصدق أنباء من الكتب   في حده الحد بين الجد واللعب[1]

وإذا قلنا إن أبا تمام بدأ في الإعداد للقصيدة منذ بداية حملة المعتصم لم نبعد عن الحقيقة؛ لما في أبيات القصيدة من إشارة إلى الاستعداد للحملة ، وإبطال الأراجيف ، وذكر المحاولة التي بدأها "ثيوفيلوس" لافتداء نفسه من الحرب ، وغير ذلك من شواهد أولية ، بالإضافة إلى الجزء الثاني من معاني القصيدة ، وهو وصف المدينة قبل وبعد الحرب ، ومديح المعتصم ، ووصف أهوال الحرب وملاقاة جنود الروم من قتل وامتهان ، مما يؤكد أن القصيدة ساورت أبا تمام منذ البداية ، فأخذ يعّد لها في نفسه ويضيف الصورة تلو الصورة ، والمعنى بعد المعنى حتى أتمها في ذهنه ثم خرج بها هكذا.

وأضيف إلى هذه الملاحظة ملاحظة أخرى وهي كثرة الروايات في تلك القصيدة – وقد أشرنا إلى كثير منها في غير موضع – مما يؤكد أن أبا تمام إما أن يكون قد كتبها وأطلع عليها بعض محبيه وخلصائه ، أو أنشدها أمامهم قبل التعديل النهائي والتنقيح والحذف والإضافة لبعض الألفاظ حتى تخرج القصيدة في ثوب قشيب ، ومظهر لائق بهذا العبقري اللماح.

---

1 - الدولة العباسية – الشيخ / محمد الخضري صـ٢١٢.

ولا يقدح هذا التنقيح في شاعرية الرجل مادام شعره قد جاء على مستوى عبقريته ، وابتعدت قصيدته عن مساوئ التكلف من صعوبة المعاني ، وحذف ما للمعاني حاجة إليه ، وإضافة ما ليس له حاجة إليه ، وغير ذلك مما قرره النقاد ، وأما صنعة البديع وإكثاره منه فليس دليلاً على التصنع مادام هذا اللون خادماً للمعنى ، ومتمماً للصورة ، وقد أشرنا إلى هذا في مواطن أخرى ، مما يجعلنا نحكم بطبع أبي تمام وبعده عن التكلف ، والصنعة الباهتة فيها.

وأما قصيدة المتنبي فقد جاء في المصادر ما يحدد زمان ومكان إلقائها، قال البرقوقي: "نزل سيف الدولة الحدث يوم الأربعاء ثامن عشر جمادى الآخرة سنة ثلاث وأربعين وثلاثمائة ، وبدأ من يومه فوضع الأساس وحفر أوله بيده ، فلما كان يوم الجمعة نازله الدمستق في نحو خمسين ألف فارس ورجل ، ووقع القتال يوم الاثنين سلخ جمادى الآخرة من أول النهار إلى العصر ، فحمل عليه سيف الدولة بنفسه في نحو خمسمائة من غلمانه ، فظفر به ، وقتل ثلاثة آلاف من رجاله ، وأسر خلقاً كثيراً ، فقتل بعضهم ، وأقام حتى بنى الحدث ، ووضع بيده آخر شرفة منها في يوم الثلاثاء لثلاث عشرة ليلة خلت من رجب ، فقال المتنبي هذه القصيدة يمدحه ، وأنشده إياها في ذلك اليوم في الحدث[1]".

---

1 - شرح ديوان المتنبي ٤/٩٤.

ويمكن أن نقول هنا بعض ما قلناه في قصيدة أبي تمام والإعداد لها. فإن المتنبي رافق سيف الدولة في هذه المعركة ، وشاهد تطورات الأحداث بنفسه منذ قدوم سيف الدولة ومحاولة البناء ، وحضور جـيش الـروم ، ووقوع المعركة ، وانتصار سيف الدولة ، والاستراحة بعد المعركة ، وإتمام البناء ، ثم جاء إلقاء القصيدة. والمتنبي كان يعد في نفسه طوال مدة إقامته بعض معاني هذه القصيدة حسب ورود الأحداث أولاً بأول ، وكل هذا واضح في قصيدته.

وهو لم يتصنع في هذه القصيدة تصنع الفلاسفة ، ولم يأت بألفـاظ الصوفية المستغلقة – كما وصفه د. شوقي ضيف في بعض أشعاره – وإنما جاءت الألفاظ والأساليب والمعاني في غاية الدقة والتعبير – وقد بينا هذا في موطنه – مما يؤكد لنا أن درجة الطبع كانت عالية في هذه القصيدة.

وهناك ملاحظة أخرى نضيفها لما سبق ، وهي تخلي المتنبي عن بعض عاداته في مدائحه من مديح نفسه والفخر بقوته وشجاعته وبأسه ، وكأني به يصب كل همته في مديح هذا البطل الذي كـان يـرى فيـه نفـسه وعروبته، ولم يرد في القصيدة من مديح لنفسه سوى الإشادة بشعره الذي جعل سيف الدولة ملهماً له في كل ما يقول من معنى ولم يترك له سـوى اللفظ والنظم ، ثم أتبع ذلك سريعاً بمديح سيف الدولة وشـكر نعمـه وعطاياه التي مكنته من الشجاعة ، قال:

لك الحمد في الدر الـــذي لي لفظــه فإنــــــك معطيـــــه وإني نــــــاظم

وإني لتعدو بي عطايـــاك في الـــوغى فــلا أنـــا مـــذموم ولا أنـــت نـــادم

على كـــل طيـــار إليهـــا برجلـــه إذا وقعـــت في مـــسمعيه الغمـــائم

وكأن نفس المتنبي قد سكنت واستراحت بهذا النصر فهدأت ثورتها، وخمدت ثائرتها التي نراها كثيراً في شعره الثائر الذي يحرض على الثـــورة والانتقام وعدم الاستسلام.

ففي مثل هذه المواقف تنطلق النفس علـــى ســـجيتها ، وتتفتـــق الشاعرية بطبيعتها ، فالصدق واضح في القصيدتين ، وحرارة التجربة يلف العمل من أوله إلى آخره ، والابتعاد عن الكذب والنفاق أمر مقرر منـــذ بدء الإنشاء في القصيدتين ؛ لأن الأمر جد ، والموقف موقف عز وفخر ، والنفس متشوقة لمثل هذا النصر المبين. ومن هنا بدت الطبائع صحيحة ، و لم يتطرق التكلف الممقوت لمثل هذه الأعمال المجيدة.

خاتمة

وبعد تلك الجولة التي طوفنا فيها في رياض أدب الحرب في العصر العباسي لشاعرين بارعين ، نعود ونقرر أن الشعر الحربي بلغ غايته في هذا العصر ، وأن المتنبي قد تخصص فيه وفاق أقرانه للأسباب التي كانت تحثه عليه من فروسية وحماسة ، وحب للعرب والعروبة ، وإخلاص للممدوح العربي الذي يرى فيه صورة الفتى العربي الحق في زمن تقدمت فيه الأعاجم، واختلطت فيه الأمور ، وضاعت فيه القيم.

كما نقرر أن قصيدتي أبي تمام والمتنبي تعدان من أدب الحرب النفيس؛ لعلو غرضهما ، وبديع معانيهما ، وسلاسة أسلوبهما ، وبما اشتملتا عليه من تصوير الصراع الدائر بين القوة الإسلامية والقوة الرومية الغاشمة ، فكانتا بذلك سجلاً تاريخياً حافلاً صوَّرتا الأحداث الدامية ، وكتبتا النصر العريق بمداد من نور في تاريخ الأمة المنصرم ، ورسمتا الصورة الحقيقية لقادة المسلمين الواثقين من النصر بالإيمان الراسخ والدفاع المستميت عن الدين والوطن ، كما رسمتا الصورة الحقيقية للقوة الرومية المخادعة التي سرعان ما انهارت أمام جحافل الحق وفرسان الإيمان.

هذا وستظل القصيدتان شاهد صدق على تلك الحروب الدامغة لتلك الفترة العصيبة في تاريخ الصراع البيزنطي العربي. ولا ننسى ما

حوته القصيدتان من جماليات الشعر العربي الرائع الذي ألمحنا إليه في أثناء حديثنا عن جوانبه الثرية ، وبدائعه الرفيعة.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

المصادر والمراجع

١ - **أخبار البحتري** ، للصولي - تحقيق/ صالح الأشقر - مطبوعات المجتمع العلمي العربي بدمشق ١٣٧٨هـ (١٩٥٨م).

٢ - **أمراء الشعر العربي في العصر العباسي** ، أنيس المقدسي - دار العلم للملايين - بيروت - لبنان - الطبعة السابعة عشرة ١٩٨٩م.

٣ - **بدائع البدائه** ، علي بن ظافر الأزدي - تحقيق/ محمد أبو الفضل إبراهيم - مكتبة الأنجلو المصرية - القاهرة ١٩٧٠م.

٤ - **البديع** ، عبد الله بن المعتز - تحقيق / أغناطيوس كراتشوفسكي - لندن ١٩٣٥م.

٥ - **البيان والتبيين** ، الجاحظ - تحقيق/ حسن السندوبي - دار إحياء العلوم - بيروت - لبنان - الطبعة الأولى ١٤١٤هـ (١٩٩٣م).

٦ - **الحرب في شعر المتنبي** ، د. محمود حسن عبد ربه - الجزء الثاني - دار الشروق - جدة - السعودية - الطبعة الأولى ١٣٩٩هـ (١٩٧٩م).

٧ - **خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب** ، عبد القادر بن عمر البغدادي - الجزء الثالث - مطبعة بولاق - مصر ١٢٩٩هـ - الجزء الثامن - مطبعة الخانجي بالقاهرة.

٨ - **دراسات في تاريخ الدولة البيزنطية** ، د. حسنين محمد ربيع - دار النهضة العربية - القاهرة - الطبعة الخامسة ١٩٩٥م.

٩ - **الدولة العباسية** ، الشيخ / محمد الخضري ، دار المعرفة – بيروت لبنان – الطبعة الثالثة ١٤١٨هـ (١٩٩٧م).
١٠- **ديوان أبي تمام بشرح الخطيب التبريزي** – الجزء الأول – تحقيق/ محمد عبده عزام – دار المعارف بمصر – الطبعة الرابعة ١٩٧٦م.
١١- **سر الفصاحة** ، ابن سنان الخفاجي – شرح وتصحيح / عبد المتعال الصعيدي – مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح وأولاده بالقاهرة ١٣٨٩هـ (١٩٦٩م).
١٢- **سيف الدولة الحمداني [أو] مملكة السيف ودولة الأقلام** ، د. مصطفى الشكعة – الناشر: مكتبة المتنبي – القاهرة – الطبعة الثانية ١٣٩٧هـ (١٩٧٧م).
١٣- **شرح ديوان المتنبي** ، وضعه: عبد الرحمن البرقوقي – الجزء الرابع – الناشر: دار الكتاب العربي – بيروت – لبنان ١٤٠٧هـ (١٩٨٦م).
١٤- **شعر الحرب في أدب العرب في العصرين الأموي والعباسي إلى عهد سيف الدولة** ، د. زكي المحاسني – دار المعارف بمصر – الطبعة الثانية ١٩٧٠م.
١٥- **الشعر والشعراء** ، ابن قتيبة – دار الثقافة – بيروت (ب.ت.).
١٦- **الصبح المنبي عن حيثية المتنبي** ، الشيخ/ يوسف البديعي – تحقيق: مصطفى السقا وآخرين – دار المعارف بمصر – الطبعة الثانية ١٩٧٧م.

١٧- **العلاقات السياسية بين الدولة البيزنطية والخلافة العباسية في عهد الإمبراطور "ثيوفيلوس" ٨٢٩ – ٨٤٢م/٢١٤ – ٢٢٨هـ** ، د. وديع فتحي عبد الله – رسالة ماجستير – إشراف: أ.د. جوزيف نسيم يوسف – جامعة الإسكندرية – قسم التاريخ ١٤٠٢هـ (١٩٨٢م).

١٨- **العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده** ، تأليف أبي علي الحسن بن رشيق القيرواني – تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد – دار الجيل للنشر والتوزيع – بيروت – لبنان (ب.ت.).

١٩- **الفن ومذاهبه في الشعر العربي** ، د. شوقي ضيف – دار المعارف بمصر – الطبعة التاسعة ١٩٧٦م.

٢٠- **قضايا النقد الأدبي الحديث** ، د. محمد السعدي فرهود – دار الطباعة المحمدية بالأزهر – الطبعة الثانية ١٣٩٩هـ (١٩٧٩م).

٢١- **مآخذ القاضي الجرجاني على أبي تمام في كتاب الوساطة** ، د. محمد محمد محمود الغرباوي – دار هديل للنشر والتوزيع – الزقازيق – الطبعة الأولى ١٩٩٩م.

٢٢- **المتنبي** ، محمود محمد شاكر – السفر الأول – مطبعة المدني – القاهرة ١٣٩٧هـ (١٩٧٧م).

٢٣- **المتنبي مالئ الدنيا وشاغل الناس** ، د. محمد التونجي – الطبعة الأولى ١٩٧٥م.

٢٤- **مجلة كلية اللغة العربية بالمنصورة** - العدد السادس عشر ١٤١٧هـ (١٩٩٧م).

٢٥- **معجم البلدان** ، ياقوت الحموي - الجزء الثاني والجزء الرابع - دار بيروت للطباعة والنشر - بيروت ١٤٠٨هـ (١٩٨٨م).

٢٦- **منهاج البلغاء وسراج الأدباء** ، حازم القرطاجني - تقديم وتحقيق: محمد الحبيب ابن الخوجة - دار الغرب الإسلامي - بيروت - لبنان - الطبعة الثالثة ١٩٨٦م.

٢٧- **الموازنة بين أبي تمام والبحتري** ، للآمدي - تحقيق: السيد صقر - دار المعارف بمصر - الطبعة الثانية ١٩٦١م.

٢٨- **الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء** ، تأليف أبي عبد الله محمد بن عمران بن موسى المرزباني - تحقيق وتقديم: محمد حسين شمس الدين - دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان - الطبعة الأولى ١٤١٥هـ (١٩٩٥م).

٢٩- **النقد الأدبي في أطوار تكوينه عند العرب** ، د. محروس منشاوي الجالي - دار الطباعة المحمدية بالأزهر - القاهرة - الطبعة الأولى ١٣٩٩هـ (١٩٧٩م).

٣٠- **نقد الشعر** ، قدامة بن جعفر - تحقيق: د. محمد عبد المنعم خفاجي مكتبة الكليات الأزهرية - القاهرة ١٣٩٦هـ.

٣١- **النقد المنهجي عند العرب** ، د. محمد مندور - دار نهضة مصر للطبع والنشر - القاهرة (ب.ت.).

٣٢- **الوساطة بين المتنبي وخصومه** ، علي بن عبد العزيز الجرجـــاني – تحقيق وشرح: محمد أبو الفضل إبراهيم ، علي البجاوي – المكتبـــة العصرية – صيدا – بيروت (ب.ت.).

٣٣- **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان** ، أبوالعباس شمس الدين أحمد بن خلكان – تحقيق: د. إحسان عباس – دار الثقافـــة – بـــيروت – الطبعة الأولى (ب.ت.).

٣٤- **يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر** ، تأليف: أبي منصور الثعالبي – الجزء الأول – شرح وتحقيق: د. محمد مفيد قميحة – دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان – الطبعة الثانية ١٤٠٣هـــ (١٩٨٣م).

الفـهــرس